# دلالة المبالغة الممتنعة على الأحوال النفسية في مدح الشعراء للخلفاء ( أبو نواس نموذجاً )

الدكتور

**عصام عبدالحافظ عبدالعال عبدالحافظ**

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

**العدد الحادي والعشرون**

**للعام ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م**

**الجزء الثالث**

**رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٧م**

**الترقيم الدولي ISSN 2356-9050**

بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله ، وصلاة ، وسلامًا على سيدنا رسول الله ، وعلى آله ، وصحبه ومن والاه .

**وبعد** :

فإن المبالغة تحليق خيالي بالعبارات غايته زيادة المعنى ، وهي مذهب من مذاهب العرب في الكلام ، ومرجعها إلى أمور نفسية تنبع من مشاعر الشخص وأحاسيسه ، تدعوه للمبالغة في أقواله لتصل إلى مشاعر المتلقي وأحاسيسه ، ولا ضير في ذلك ، فقد يكون المقام يتطلب التوسع في الكلام والوصول إلى صورة مثالية تتضمن أسمى المعاني وأرقاها ، ولكن الضير كل الضير أن يبالغ المتكلم ، فيخرج بمبالغته إلى حدود منزلقات في الأعراف ، والعادات ، والدين ، ولقد ربط كثير من النقاد بين عقيدة الشاعر ومبالغاته ، واتخذوا منها دليلًا على ضعف دينه ، وقلة إيمانه ، باعتبار أن كلامه يعد ترجمة لما في نفسه ، وقيمه ، ومبادئه .

ولست بهذا البحث أريد الخوض في هذه القضية ؛ لأن البحث عن عقائد الناس وبخاصة الشعراء من خلال كلامهم أمر يحفه خطر شديد ، كما أن البحث عن عقائد الشعراء في أشعارهم ينبغي أن يقع خارج نطاق اهتمام النقد الأدبي ، والبحث البلاغي ؛ لأننا مع ما فعله ابن الزبعري ، وكعب بن زهير، وغيرهما بتعرضهم لشخص رسول الله ــ صلي الله وعليه وسلم ــ في شعرهم إلا إننا ما زلنا ندرس شعرهم في ميدان الدرس البلاغي والنقدي .

ولكن الغرض الرئيس من هذه الدراسة هو الوقوف على الأحوال النفسية للشاعر التي جعلته يلجأ إلى مثل هذه المبالغات التي أوقعته في دائرة الإلحاد ــ

والعياذ بالله ــ مع العلم يقينًا بأن هذه المبالغات ــ مع ما فيها من فسحة خيالية ــ لا تغفر له مثل هذا لا عند الله ــ عز وجل ــ ولا عند الناس ، وعلى هذا الأساس جعلت عنوان بحثي هذا ( دلالة المبالغة الممتنعة على الأحوال النفسية في مدح الشعراء للخلفاء ( أبو نواس نموذجًا ) .

ومن هنا فالغرض من هذا البحث هو الوقوف على المعطيات النفسية التي جعلت الشاعر أشد انفعالًا وأكثر تأثرًا مما عليه الحال عند الإنسان العادي من خلال الاطلاع على جزئيات القصيدة وتراكيبها ، وما هي الأدوات اللغوية التي استعملها الشاعر ، ودلالاتها المعنوية ، وخصائصها البلاغية التي من خلالها نقف على الشحنة النفسية التي أوقعته في تلك المبالغة المثيرة للمتلقي بما فيها من معان ترفضها الطباع السوية ؟ وما هو المعنى الحقيقي الذي يريد إيصاله للمتلقي ويجذبه نحوه ، ولكن من طريق خفي لمعالجة قضية حساسة مرتبطة بوجدانه الداخلي ؟

ولقد لفتت مبالغات أبي نواس أنظار النقاد قديمًا وحديثًا باعتباره رائدًا لأولئك المحدثين من أمثال أبي تمام ، والبحتري ، وغيرهما ، ومن هنا وقع اختياري له دون غيره لعدة أسباب :ــ

١ــ أنه لم يتطرق أحد ــ فيما أعلم ــ لدراسة نفسية أبي نواس من هذا الاتجاه في مدحه للخلفاء متخذًا من المبالغة طريقًا لذلك ، بل إن الدراسات النفسية حوله كانت قائمة على حبه للخمر ، والمرأة ، وعلى تمرده ، وحبه لذاته ، وإيثارها على ذوات الآخرين ، وهذا ما فعله العقاد في كتابه: ( أبو نواس الحسن بن هانئ ) ، والدكتور: محمد النويهي في كتابه : ( نفسية أبي نواس ) .

٢ــ غالبًا ما يصدر الحكم على مدائح الشعراء للخلفاء بالنفاق باعتبار أن القصد منه التكسب ، والشهرة ، والذيوع ، وهذا الحكم مع كونه لا يبعد

كثيرًا عن الصواب إلا إن القطع بأن الشاعر ينافق ممدوحه ينبغي الإحاطة معه بالأبعاد الأخرى المختلفة المحيطة بالشاعر ، وخاصة النفسية منها ، خاصة حينما يتعلق الأمر بنفسية شاعر اتهم بالتمرد الفني ، وعدم الاقتناع بالأنماط التعبيرية ، والقوالب الشعرية التي أفرزتها القصائد القديمة .

٣ــ هناك بعض الدراسات قد استهانت بالشاعر في مجال المديح ، فمن الباحثين من رأى أن مدائحه أقل وزنًا في النظرة الشعرية لما يبرز فيه من الصنعة والتكلف [١] ، فأرادت هذه الدراسة أن تتلمس جانبًا مغايرًا لمثل هذه الأحكام من خلال الاطلاع على نفسية الشاعر ومشاعره .

ومن هنا فقد تطلبت الدراسة أن تأتي وفق المنهج الآتي :ــ

**المقدمة** : وفيها أسباب اختيار الموضوع ، ومنهج السير فيه .

**التمهيد** ، ويشتمل على :

١ ــ الإيغال في الوصف بين القبول والرفض .

٢ ــ الدلالة النفسية ، وأثرها في البلاغة العربية .

٣ــ طبيعة الشاعر، وصداها في مدحه للخليفة الرشيد وابنه الأمين .

**المبحث الأول** : دلالة المبالغة علي الأحوال النفسية لأبي نواس في مدحه للخليفة الرشيد .

ــ الرهبة الشديدة المشوبة ببعض الأمل .

ــ الأمل المطلق .

---

(١) تاريخ الأدب العربي، تأليف : كارم بروكلمات ، ٢٦/٢ ، الناشر : دار المعارف القاهرة ، ط ٥ ( بدون تاريخ )

**المبحث الثاني** : دلالة المبالغة على الأحوال النفسية لأبي نواس في مدحه للخليفة محمد الأمين .

- الأمل المشحون بالقلق والتوتر .
- الهدوء النسبي
- الارتياح والسرور

**الخاتمة** : وفيها أهم نتائج البحث .

**فهرس المصادر والمراجع** .

هذا وبالله التوفيق

## التمهيد

ويشتمل على : ــ

### ١ ـ الإيغال في الوصف بين القبول والرفض

المبالغة هي أن يدعي المتكلم لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًا مستحيلًا أو مستبعدًا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف [١] ، وتنحصر في التبليغ والإغراق والغلو ، وإنما انقسمت المبالغة إلى الأقسام الثلاثة لأن المُدعَي ، وهو بلوغ الوصف إلى النهاية شدة أو ضعفًا إن كان ممكنًا عقلًا وعادة فهو تبليغ ، وإن كان ممكنًا عقلًا لا عادة فهو إغراق ، وهما أي التبليغ والإغراق مقبولان ، وإن لم يكن ممكنًا لا عقلًا ولا عادة فغلو ، وسمي غلوًا لتجاوزه حد الاستحالة العادية إلى الاستحالة العقلية [٢] وهي تجري على واحد من أسلوبين ، أحدهما : المبالغة غير القياسية ، وهي التي ينشئها المتكلم دون قيد بصيغة مخصوصة ، ودون ألفاظ أو تراكيب لا يتعداها المتكلم ، فهي بلا قيود إلا قيد السلامة النحوية ، وقيد استعمال الكلمات الواضحة الدالة على المعنى الذي يريده المتكلم ، وآخرهما : المبالغة القياسية ، وهي التي يأتي بها المتكلم على صيغة معينة بوزن مخصوص لا يرمي القائل إلى مجاوزة الحقيقة بل إلى إثبات صفة من الصفات على سبيل الكثرة ، ودوام المزاولة [٣] ، والعلماء في المبالغة على ثلاثة مذاهب : ــ

---

(١) شروح التلخيص ٤ / ٣٥٨ ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ( بدون تاريخ ) .

(٢) ينظر : المرجع السابق ٤ /٣٦٠ ،٣٦١.

(٣) ينظر : جواهر البلاغة ، تأليف : أحمد الهاشمي ، ص ١٦ ، علق عليه ودققه / سليمان الصالح ، الناشر : دار المعرفة بيروت ــ لبنان ، ط١ : ٢٠٠٥م .

١ــ الرفض مطلقًا : وحجتهم أن خير الكلام ما خرج مخرج الحق ، وجاء على منهاج الصدق من غير إفراط وتفريط .

٢ــ القبول مطلقًا : وحجة أولئك أن خير الشعر أكذبه ، وأفضل الكلام ما بولغ فيه

٣ــ التوسط بين الأمرين : فَتُقْبَلُ مع الحسن إذا جرت على منهاج الاعتدال ، وهذا رأي جمهرة العلماء ، ودليل ذلك وقوعها في التنزيل على ضروب مختلفة ، وتُرد إذا جاءت على جهة الإغراق والغلو ، ويذم مستعملها ، كما درج على ذلك أبو نواس ، وابن هانئ الأندلسي ، والمتنبي ، وأبو العلاء ، وغيرهم [١]

ومبالغة الغلو : أن يكون الوصف مستحيلًا عقلًا وعادة أي إن حصوله على خلاف السنن الطبيعية [٢] ، وهذا النوع من المبالغة يركن إليه الكثير من الشعراء يستعملونه في مدحهم ، وفي هجوهم ، فقد لفتت ظاهرة الغلو معظم الشعراء العرب ، وشملت شعر الأندلسيين والمغاربة والمشارقة على حد سواء . . . ثم تجلت بارزة في مدائح المتنبي [٣] ، وقد دأب غير واحد من النقاد في القديم والحديث على الربط بين المبالغات وعقيدة الشاعر بسبب ما فيها من إيغال في الوصف ، واتخذ منها دليلًا على رقه دينه ، وضعف إيمانه ، ويعد الثعالبي أحد قدامي النقاد الذين ربطوا بين عقيدة أبي الطيب المتنبي من ناحية، ومبالغاته التي يبدو فيها خارجًا عن جادة الدين مستصغرًا أمر الأنبياء متشبهًا بهم ، وأورد في كتابه (يتيمة الدهر)[٤] بعض المبالغات التي عدها دليلًا على ضعف عقيدة أبي

---

(١) ينظر : علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ، تأليف : أحمد مصطفى المراغي ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنات ، ط٣ : ١٩٩٣م .

(٢) شروح التلخيص ٤ /٣٦٣ .

(٣) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي ، تأليف : عمر الدقاق ،ص ٨٨ ، ٨٩ .الناشر : دار الشري العربي ٢٠٠٦م .

(٤) ينظر : يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي ١ / ١٢٠ ، ١٢١، تح / مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط١ :١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

الطيب. أما في نقدنا الحديث فكان الدكتور/ طه حسين[١] من أوائل الذين اتخذوا بعض مبالغات أبي الطيب دليلًا على فساد عقيدته، وساق شواهدًا تأكيدًا على ذلك.

ولم يكن أبو نواس بدعًا من الشعراء ، فقد كان هذا التوجه في شعره سببًا في اتهامه بأن مبالغاته كانت لخدمة أغراض دينية ، يقول د / شوقي ضيف : " فمثلًا هارون الرشيد حين يمتدحه أبو نواس لا يمدح شخصه من حيث هو ، وإنما يمدح المثل الأعلى للخليفة الكامل كما يتراءى في مخيلة الجماعة الإسلامية "[٢]

**٢ ـ الدلالة النفسية ، وأثرها في البلاغة العربية .**

لا يمكن إغفال أن المبالغة في الوصف لها صلة وثقى بثقافة الشخص ، وتكوينه النفسي ، والفكرة التي يريد إيصالها ، وهذه المبالغات ما هي إلا انعكاس لما بداخله ، ويريد إيصاله للمتلقي ، ويعد العلامة الجاحظ من أوائل الذين تنبهوا للدلالة النفسية ، وأثرها في البلاغة العربية ، فنجده عند تعرضه لمفهوم البلاغة يقول : " وقال بعضهم- وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه- لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " [٣]

ويقول حازم القرطاجني : " يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصورة الذهنية في نفسه ، ومن جهة ما يكون بالنسبة إلى موقعه من النفس من جهة هيأته ودلالته ، ومن جهة ما تكون عليه الصورة في أنفسها ، ومن جهة مواقعها من النفوس من جهة هيأتها ودلالاتها .

---

(١) ينظر: حديث الأربعاء ، ٤٠٥/٢ طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ( بدون تاريخ ) .

(٢) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، ص٦٢ ، الناشر : دار المعارف القاهرة ( بدون تاريخ ) .

(٣) البيان والتبيين ١ / ١١٣، ت : عبد السلام هارون ،الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ، عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

. . ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تكون تلك المعاني الذهنية صورًا لها ، وأمثلة دالة عليها ، ومن جهة مواقع تلك الأشياء في النفوس " (١)

وجهود العلماء معروفة في معرفة الحالة النفسية ، وقد أشار الإمام عبد القاهر في حديثه عن النظم إلى ذلك بقوله : " . . فلو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم ، أو غير الحسن فيه ؛ لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسًا واحدًا ، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئًا يجهله الآخر " (٢)

فمحاولة الربط بين اللفظة ودلالتها النفسية للوصول إلى الحالة النفسية المسيطرة على القائل تعد من المحاولات التي يجب أن تحظى بدراسة متأنية للوصول إلى الإدراك النفسي للكلمة الصوتية ، ومدلولاتها المعنوية ضمن سياقها الموضوعة فيه ؛ ولهذا نجد ابن سينا قد تنبه إلى ذلك ، فقال : " وقد يُنتفع بالألفاظ الانفعالية والخلقية انتفاعًا شديدًا ، وذلك حتى يراد أن يثار انفعال ، فتكون الألفاظ المثيرة للأنفة الفاضحة صالحة لإثارة الغضب ، وأما الألفاظ المستقيمة للفواحش والآثام ، فإنما ينتفع بها حين يزهد في القبائح "(٣)

**٣ ـ طبيعة الشاعر ، وصداها في مدحه للخليفة الرشيد ، وابنه الأمين .**

أبو نواس، الحسن بن هانئ بن عبد الأول ، وهو شاعر العراق في عصره. ولد بالأهواز، بالقرب من الجبل المقطوع المعروف براهبان ، سنة تسع وثلاثين

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ١٧ .، ت / محمد بن خوجه ، الناشر : دار الكتاب تونس ١٩٦٦م .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٤٣ ، تح: د. عبد الحميد هنداوي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ :،١٤٢٢هـ – ٢٠٠١ م .

(٣) الخطابة في كتاب الشفاء ، ص ٢١٩ ، الناشر : مكتبة ابن رشيد الدار البيضاء ٢٠٠٦م .

ومائة، ومات ببغداد سنة خمس وتسعين ومائة، وكان عمره خمسًا وخمسين سنة، ودفن في مقابر الشونيزي في تل اليهود، ومات في بيت خمارة كان يألفها.[١] .

ولقد عُرف أبو نواس بتمرده على الأوضاع الأدبية والأخلاقية والدينية وعلى بعض التقاليد الشعرية الموروثة عن القدماء ، ولكنه كان مجبورًا في كثير من الأحيان على الانقياد والإذعان للخلفاء بالسير على الأعراف الأدبية في مدحه لهم ، ومما ذكر من خصال أبي نواس المحمودة، أنه كان عالماً فقيهًا، عارفًا بالأحكام والفتيا، بصيرًا بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه ، وقد تأدب بالبصرة، وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهًا وأدبًا ، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين ، يحفظ سبعمائة أرجوزة، وهي عزيزة في أيدي الناس، سوى المشهورة عندهم ، فلما فرغ أبو نواس من إحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والمُلح، فحفظ منها شيئًا كثيرًا حتى صار أغزر الناس، ثم أخذ في قول الشعر، فبرز على أقرانه، وبرع على أهل زمانه ، ثم اتصل بالوزراء والأشراف، فجالسهم وعاشرهم، وأحبه الخاصة والعامة، وكان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده ويلام على ذلك ، فيقول: إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون، الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلا بأمرهم، والله لكأني على النار إذا دخلت عليهم ، حتى أنصرف إلى إخواني ومَنْ أُشاربه ، ولأني إذا كنت عندهم فلا أملك من أمري شيئًا [٢]

---

(١) ينظر :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان المؤلف: أبو العباس ابن خلكان البرمكي الإربلي ١٣٥/١، تح : إحسان عباس ، الناشر: دار صادر – بيروت ، ط١ : ١٩٠٠م ، و الأعلام للزركلي ٢ / ٢٢٥ ، الناشر: دار العلم للملايين ، ط١٥ : ٢٠٠٢م .

(٢) ينظر : طبقات الشعراء لابن المعتز (ص: ٢٠١ ، ٢٠٢) تح : عبد الستار أحمد فراج ، الناشر: دار المعارف – القاهرة ، ط٣ : ( بدون تاريخ )

ولقد ذكرت المصادر أن العلاقة بين أبي نواس والرشيد قد انتهت بسجن الرشيد له بتهمة الخروج على الدين ، وإظهار فسقه وفجوره في شعره ، ولأنه كان شديد التعصب لقحطان على عدنان ، وله فيهم أشعار كثيرة يمدحهم ، ويهجو أعداءهم (١)

كما أن الطبيعة البشرية بين الاثنين كانت سببًا في توتر العلاقة بينهما ، فما يتمتع به الرشيد من الهيبة والجلال لم يكن ليصنع بينهما أنسًا ، فيعمد إلى منادمة شاعر ماجن مثل أبي نواس ، ولهذا السبب لم يسمح الرشيد لأبي نواس بمجالسة ابنه الأمين ، ومن هنا لم تكن العلاقة وطيدة بين الخليفة محمد الأمين وأبي نواس في حياة الخليفة الرشيد ، وعندما تولى الخلافة محمد الأمين بعد وفاة أبيه الرشيد كان أبو نواس محبوسًا بأمر من الرشيد ، فأخرجه الأمين من السجن بعد توسط الوزير الفضل بن الربيع له عند محمد الأمين ، وهنا بدأت العلاقة تتوطد بين الخليفة الأمين والشاعر أبي نواس لميل الأمين إلى نمط حياة أبي نواس من حب للخمر والمجون (٢)

---

(١) ينظر: المرجع السابق ،ص ١٩٥ .

(٢) ينظر : الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ،ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ت / محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت لبنات ( بدون تاريخ ) .

## المبحث الأول

### دلالة المبالغة علي الأحوال النفسية لأبي نواس في مدحه للخليفة الرشيد .

كانت العلاقة بين الخليفة الرشيد والشاعر أبي نواس متوترة ؛ لأن طبائعهما مختلفة فهذا يميل للشدة والحزم ، والآخر يميل للترف واللهو ، ولا شك أن هذا كان له صداه على نفسية أبي نواس ، وقد ظهر هذا جليًا في مدحه ، ومبالغاته التي صورت بعض الأحوال النفسية التي كان يعاني منها أبو نواس في ظل حكم الرشيد ، وهاك بيان بعض من ذلك :ـ

**١ ـ الرهبة الشديدة المشوبة ببعض الأمل .**

١ـ قال أبو نواس من الكامل : (١)

ملكٌ تصَورَ في القلوبِ مِثالُهُ ∴ فكأنه لم يَخْلُ منْهُ مكانُ

ما تنطوي عنهُ القلوبُ بِفَجرَةٍ ∴ إلا يُكَلِمْـــهُ بها اللحظانُ (٢)

فيظلُ لاستنبائِهِ وكأنْهُ ∴ عينٌ ما غَيبَ الكِتْمانُ

٢ـ وقال من الكامل : (٣)

حتى الذي في الرحمِ لم يك صورة ∴ لفؤادِهِ من خَوْفِهِ خَفْقَانُ

٣ـ وقال من الكامل : (٤)

وأخفتَ أهْلَ الشركِ حتى إنْهُ ∴ لتَخافُكَ النطفُ التي لم تُخلقُ

---

(١) ديوان أبي نواس ، ص ٥٤٩ ، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ / علي فاعور ، طبعة دار الكتب العليمة بيروت ـ لبنان ، ط١: ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨م .

(٢) بفجرة : الفُجورُ: أَصله الْمَيْلُ عَنِ الْحَقِّ بفجور وخيانة (لسان العرب ، مادة فجر ٥/ ٤٧)

(٣) الديوان ، ص ٥٥٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

يلاحظ في المبالغات السابقة أن أبا نواس يدفع بها دفعًا حتى يتخطى بها الواقع الملموس بجعل المستحيل ممكنًا ، وهو بهذا يلفت القارئ إلى معنى غامض في نفسه يأبى الوقوف عنده كثيرًا مع إن العقل والحس يتطلب غير ذلك باعتبارها لحظة خيالية يفترض أن يستعذبها اللسان ، ويطيل فيها القلم ما شاء .

فكأن هذه الوقفات القصيرة المفاجئة في القصيدة تظهر معها أنفاس أبي نواس الخاصة والتي من أجلها أخرج الأشياء عن طبائعها المعروفة لها ، وغَيرَ من حقائقها .

وها هو في الشاهدين الأول والثاني ــ اللذين تجمعهما قصيدة واحدة ــ يفاجئنا بوصف عجيب لتلك القلوب ليبين من خلالهما حال الخليفة الرشيد ، وأثره الواضح في رعيته ، وما أحدثه في قلوبهم من رهبة ، فيُظهره وكأنه معهم في أي مكان ، وقد جاء الأسلوب التعبيري في البيت الأول مصورًا لهذا المعنى أتم تصوير بما اشتمل عليه من تشبيه ، بقوله : ( ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يخل منه مكان ) ومع أن المبالغة هنا فيها إيغال شديد في الوصف إلا إنه يمكن القول : إن علاقة المشابهة بين الطرفين قائمة على التقريب بين المتشابهات ، وهذا منحها فسحة من الخيال ، ولكنه يأتي بالبيت الثاني لإكمال هذا المعنى ، فخرج به عن النطاق الذي تقبله العقول ، فقال : (ما تنطوي عنه القلوب بفجرة إلا يكلمه بها اللحظان ) ، حيث صور مدى خوف الرعية منه بأن ما تنطوي عليه القلوب من فجور وخيانة تخبره به اللحظان ، وهو "النَظَرَة بمؤخِرِ عينِه مِنْ أَيّ جَانِبَيْهِ كَانَ، يَمِينًا أَو شِمَالًا، وَهُوَ أَشدّ الْتِفَاتًا مِنَ الشزْر"(١) ، وفصل البناء التركيبي للبيت الأول بما فيه من تشبيه عن البيت الثاني بما فيه من تعبير

(١) لسان العرب لابن منظور ، مادة لحظ (٧/ ٤٥٨) ، الناشر: دار صادر – بيروت ، ط٣ : – ١٤١ هـ .

كنائي ؛ لأنه مرتبط به ارتباطًا يتعذر معه دخول حرف العطف الواو المشعر بتغاير المعنى بين الجملتين ؛ لأن علمه بما تنطوي عليه القلوب ما هو إلا دليل على أنه معهم في كل مكان .

فالشواهد مع ما فيها من تصوير إلا إنه تخللها ألفاظ وتراكيب ذات لغة خاصة تتناسب مع هذا التصوير ، وتجعلها تحوي معنى أعمق ، فقوله في البيت الأول ( ملك تصور في القلوب مثاله ) فمثل هذا التركيب يدل على أن هذا الخوف ليس أمرًا حسيًا فحسب ، بل هو أمر شديد الالتباس بالنفس ، فصورة الملك منطبعة على القلوب ، فهو شاخص ماثل أمامهم لا يفارق خياله خيالهم ، والتعبير بقوله : ( ما تنطوي عليه القلوب بفجرة ) كناية عن ما تستره النفس من فجور وخيانة ــ ولعل في هذا إشارة إلى نفسه وما ينطوي عليه قلبه ــ ، وبالتالي أتي بقوله : ( إلا يكلمه بها اللحظان ) ليبين أن الرهبة المسيطرة على النفوس جعلتها تعيش في حالة انفصالية عن ذاتها نتيجة لمشاعر الخوف التي تمكنت منها ، وسيطرت عليها ، وعلى أفكارها ، وبالتالي تحاول التخلص منها ، فيكون اللحظان عنصرًا من العناصر التي تكشف هذه المشاعر وتفضحها ، وبالتالي فالشعور بالرهبة الشديد من الخليفة جعلها في حالة انفصال عن ذاتها ، وبذلك يتحول الشخص في نفسه إلى حالة ضدية عدائية بين أعضائه ، فما يحاول ستره في قلبه تفضحه به عينه من شدة خوفه .

فالذات تود الانطواء على نفسها ، ولكن إحساسها بالعجز أمام سطوة هذا الخليفة والشعور بالخوف والرهبة عمل على تمزقها ، ومن ثم فقدانها لذاتها لتعيش في قلق وانفصال عن نفسها ، وقد أدى الإسناد المجازي بقوله ( إلا يكلمه به اللحظان ) دورًا متميزًا في إيضاح الدلالة عندما صور لنا ( اللحظان ) في صورة ما يفصح ويتكلم عما في داخل الإنسان ، فكأن هذا الكلام الذي يعبر عما بداخل صاحبه عن طريق اللسان لو توقف اللسان عن الإفصاح عما يدور بخلجات

هذا الإنسان ، فإن الذي ينطق ويبوح هو اللحظان . فالإنسان يتصف بكونه ناطقًا، ولكن بإمكانه السكوت عند إرادة عدم ذلك ، وإنما خوفه من هذا الخليفة أوصلته إلى أن عينيه ستفصح عما بداخله دون إرادته ، فساعد هذا الإسناد عن طريق المجاز العقلي الذي علاقته الجزئية ــ باعتبار أن اللحظين جزء من أجزاء الإنسان ــ على تصور مشاعر هذا الإنسان وصفاته ؛ إذ تختفي لديه القدرة والسيطرة على أعضائه رهبة من هذا الخليفة وسطوته . ومغزى أسلوب القصر في ذلك التعبير هو زيادة التأكيد في الدلالة على الإخبار والإفصاح عما يدور بخلجات هذا الإنسان ، وسر الإلحاح في استجلاب مثل هذه المبالغة البعيدة الخيال هو الإيماء بمدى الرهبة الشديدة من الخليفة .

ولقد أخرج الصورة في إطار الواقع الحي الملموس ، والمستمر الوقوع من خلال التعبير بالمضارع للدلالة على تجدد حدوث هذا الأمر الخارق للعادة ، وتكرار وقوعه ، وفي إظهار ضمير الغيبة الراجع على الخليفة مزيد إظهار لمدى رهبة القلوب من ذلك الخليفة .

وبعد أن بين حال القلوب تجاه هذا الخليفة جاءت الفاء العاطفة ، والتي تحمل معنى السببية لتبين واقعهم الذي يعيشونه ، وأكمل صورة الملك من خلال تشبيه آخر بقوله : ( فيظل لاستنبائه وكأنه عين ما غيب الكتمان ) وكأنه يريد أن يقول : أن حالة القلوب وتلك الرهبة الشديدة قد أوصلتهم إلى درجة أن يتخيلوه وكأنه عين على ما غيب الكتمان ، فصورةُ هذه المرة بأن جعل له عيونًا في كل مكان تنظر نيابة عنه لدرجه أنه قد وصل به الحال أن يعرف ما قد أصبح في حكم النسيان. وقوله : ( فيظل ) يدل على عظيم أثره فيهم ، بل وطول هذا الأثر ، حيث أظهره وكأن هذا الأثر يبقى معهم طوال النهار لا يفارقهم . وإسناد الضمير المعبر عنه إلى (كأن) التشبيهية التي تفيد قرب وجه الشبه بين المشبه والمشبه به فيه تمييز لشخص الخليفة ، ومدى أثره ، ووقعه على قلبه .

فالشاعر عن طريق التشبيه التمثيلي ، والصورة الكنائية في الشواهد السابقة يحاول أن يجسد لنا مدى الرهبة والخوف من الخليفة الرشيد ، وكلها أمثال تصب في قالب واحد ، ورغم مغايرته فيها بين الوصل والفصل إلا إن كل صورة فيها بمثابة توكيد لصاحبتها في معناها . وهذا إلحاح من الشاعر على فكرته ، ولا بد له من أسبابه ودواعيه من الرغبة في إظهار حقيقة هذا الخليفة بين قومه وأهله ، وأن تتمكن تلك الحقيقة في نفس القارئ تمكنها في نفسه ، وأن يبلغ في التعبير عنها أقصى الغايات ، كما أن لجوءه إلى هذه الصور التشبيهية ليظهرها على أنها حقيقة ظاهرة لا على أنها مشاعر خفية .

وفي هذا جانب من الإعذار لنفسه عن شدة الرهبة والخوف من الرشيد ؛ لأنه بذلك يريد أن يقول بأن رهبته وخوفه لا محيد عنه ؛ لأنه شيء منطبع متأصل في طبيعة كل نفس .

والشاعر في النهاية يصور الرشيد ، ويرسم له صورة دقيقة متعددة التفاصيل ، يشير من خلالها إلى تأثير الخليفة في الأشياء التي من حوله من جهة، ويرسم صورة لأحوال قومه معه من جهة أخرى ، والذي سوغ لأبي نواس كل هذا هو الشعور بالخوف ، وهذا ما صرح به الشاهد الثاني حينما قال :

**حتى الذي في الرحم لم يك صورة ∴ لفؤاده من خوفه خفقان**

وهذا يدل على ما في نفس أبي نواس صراحة ، ولهذا لم يحرص على أي نوع من أنواع البديع ، فرغبته في إحداث أمر غريب تفوق أي رغبة ، فالخوف من الخليفة من الصعوبة بمكان حتى وصل به إلى هذا الحد الذي جعل الأفئدة التي لم تُخلق بعد ترتجف خوفًا من سطوته وقهره ، قال العلامة المرزباني : "وما لم يك صورة ، فكيف يكون له فؤاد؟ فقد أحال، وأسرف، وتجاوز. وإنما ذكرنا مساوئه ؛ لأن المنشد إذا ذكر شاعرًا فوصفه ومدحه وقرّظه ، فليس يكاد يعدم

مدافعًا عن قوله، ومعارضًا فيه؛ فيأتيه بهذا وبشبهه احتجاجًا عليه ووضعًا من صاحبه، فيكسفه بما لا يعرف، ويردعه من حيث لا يشعر "(١)

وبالإضافة إلى ما نراه من جعله المستحيل ممكنًا نجد ما يحمله هذا التصوير من دلالة على الاستمرار الذي هو في حد ذاته مبالغة بما في صيغة ( خفقان ) من دلالة على الامتداد والشدة في الارتجاف .

وبقوله : ( حتى ) يصير هذا المستحيل وكأنه واقع حياة يستغرق جميع المحيطين به لدرجة أن الخوف منه قد وصل إلى الأشياء التي لم تُخلق بعد .

والتعبير بالخوف تصريح لما يشتكي منه دومًا أبو نواس ، فهو أسيره الذي لا يستطيع أن ينفك عنه ، وهو عندما يُكسب الخوف من الخليفة هذه الأوصاف الخارقة للعادات ، فهو لا يريد التفنن في الصنعة بقدر ما يخفي من إرادة حقيقة يريد أن يصل بها إلى بيان حقيقة الممدوح وواقعه المرير بينهم حتى جعله أشبه بالمخلوق المستمد صفاته من الصفات الإلهية ــ والعياذ بالله ــ

فالشاعر هنا يضرب على الوتر المعبر عن نفسيته المصور لمدى رهبته من الخليفة ، ويصور مدى الحرص والحذر في التعامل مع أصحاب السلطة والنفوذ ، فهم كالدهر في شراسته ، وفتكه ، وهو ما عبر عنه بقوله بعد ذلك (٢):

حذرَ امرئ نُصرتْ يداه على العدى ∴ كالدهر فيه شراسَةٌ ولَيانُ(٣)

---

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص ٣٣٩ .

(٢) الديوان ، ص ٥٥٠.

(٣) الليان بالفتح: المصدر من اللين. تقول: هو في لَيانٍ من العيش، أي في نعيمٍ وخفض (الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لابن حماد الجوهري الفارابي (٢١٩٨/٦)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ : ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م

وكأن أبا نواس ينقل القارئ إلى واقع غير الواقع وإلى عالم جديد ، يرمز من خلاله إلى مدى صعوبة هذه الحياة ، ومدى قسوة وسطوة هذا الملك مما جعله يلبس الأشياء غير لباسها ، ويُحدثُ فيها من الغرابة ما لا يستطيع إحداثه إلا عقل كعقل أبي نواس ، ولعله بهذا يشير بطريق خفي إلى السبب في عدم مخالفته لما عهد عليه في شعره من الخروج على النمط التقليدي للقصيدة العربية بالوقوف على الأطلال ببكاء الأحبة والديار ، وفي عدم تمرده هنا على الواقع الفني وبدء القصيدة بالوقوف على الأطلال .

فبدايته الطللية لم تكن لهوى في نفسه، فهو يأبى السير على موروث الآباء والأجداد بالوقوف على الطلال ، ولكن هذا الوقوف له داعيه الأول ، وهو الخوف من سطوة هذا الخليفة ، ومقترنًا أيضًا في نفسيته بتفاؤله وتطلعه للحصول على العطايا ، وهو ما نلمحه بعض الشيء في بدايته التفاؤلية بقوله : [١]:

حَي الديارَ إذ الزمانُ زَمانُ ∴ وَإذِ الشباكُ لنا خوى ومَعانُ [٢]

يا حبذا صَفوانُ من مُتَربعٍ ∴ ولَرُبما جَمَعَ الهوى سَفَوانُ[٣]

---

(١) الديوان ، ص ٥٤٨ .

(٢) الشباك : موضع في بلاد غني بن أعصر بين أبرق العزاف والمدينة . والشباك أيضا : طريق حاج البصرة على أميال منها ( معجم البلدان شهاب الدين الحموي٣ / ٣١٧ ،الناشر : دار صادر بيروت ، ط٢ : ١٩٩٥ م) ،وَمَعْنَى خَوَتْ أَي خَلَتْ كَمَا تَخْوِي الدارُ خُوِيّاً إِذَا خَلَتْ مِنْ أَهلها. وخَوَتِ الدارُ أَي بادَ أَهْلُها وَهِيَ قَائِمَةٌ بِلَا عامِرٍ ( لسان العرب ، مادة خوى (١٤/ ٢٤٥) والمَعَانُ: المَباءَةُ والمَنزل. ومَعانُ القَوْمِ: مَنْزِلُهُمْ. يُقَالُ: الْكُوفَةُ مَعانٌ منَّا أَي مَنْزِلٌ مِنَّا. قَالَ الأَزهري: الْمِيمُ مِنْ مَعانٍ مِيمُ مَفْعَلٍ. ومَعانٌ: مَوْضِعٌ بِالشَّامِ. ومَعِينٌ: اسْمُ مَدِينَةٍ بِالْيَمَنِ ( لسان العرب ، مادة معن (١٣/ ٤١١)

(٣) سَفَوَانُ: بفتح أوّله وثانيه، وآخره نون، كأنّه فعلان من سفت الريح التراب ، وأصله الياء إلّا أنّهم هكذا تكلّموا به، قال أبو منصور: سفوان ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وبه ماء كثير السافي وهو التراب: ( معجم البلدان (٣/ ٢٢٥).

وإذا مررتَ على الديارِ مُسَلمًا ∴ فلِغَيرِ دارِ أُميمةَ الهِجْرانُ

إنا نَسَبْنا والْمَناسِبُ ظِنةٌ ∴ حتى رُميتِ بنا وأنتَ حَصانُ [١]

فالبداية الطللية مع ما فيها من لمحة تفاؤلية بقوله : ( حبذا ، ولربما ) وبتصويره الديار في صورة الإنسان الذي يطلب له التحية والسلام إلا إنه مع ذلك أبرزه في صورة الإنسان الضعيف أمام سلطة الزمان وقهره .

وهنا يربط الشاعر بين الأطلال ، وبين ذاته ، فكما أبكى الزمان تلك الأطلال التي يتلمس فيها الأمل والتفاؤل ، كذلك قضى عليه وعلى ذاته التي تحاول أن تتخطى الصعاب من خلال محبوبه .

ثم لم يجد الشاعر بديلًا للتخلص من كل هذه الصعوبات إلا بالرحلة إلى الخليفة الممدوح بالناقة السريعة ــ التي هي رمز للقوة بما خلعه عليها من صفات خيالية ــ فقال : [٢]

لَما نزَعتُ عن الغَوايةِ والصبَا ∴ وَخَدَتْ بي الشدَنيةُ المِذْعَانُ[٣]

---

(١) نسب : نسب الشاعر بالمرأة ينسب بالكسر نَسيباً، إذا شَبَّبَ بها.( الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٢٢٤) الحصان : العفيفة من أحصنت المرأه: عفت. وأَحْصَنَها زوجها، فهي مُحْصَنَةٌ ومُحْصِنَةٌ. قال ثعلب: كل امرأة عفيفة محصنة ومحصنة، وكل امرأة متزوِّجة مُحْصَنَةٌ بالفتح لا غير ( الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢١٠١)

(٢) الديوان ص ٥٤٨ .

(٣) وشَدَنٌ: مَوْضِعٌ بِالْيَمَنِ، والإبل الشَّدَنية مَنْسُوبَةٌ إِليه ( لسان العرب (١٣/ ٢٣٥) ومذعان : سَلِسَةُ الرَّأْسِ مُنْقَادَةٌ. ( معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس (٢/ ٣٥٥) ، تح: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر ، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.)

سَبْـطٌ مَشافِرُها دَقيقٌ خَطمُهـا ∴ وكأن ســـائِرَ خَلْقِهـا بُنْيانُ [١]

وهنا تبرز ذات الممدوح بأنه الملجأ والملاذ لما يعانيه من سطوة الزمـــان بقوله : [٢]

وإلى أبي الأمناءِ هارونَ الذي ∴ يحيا بِصَوْبِ سمائِهِ الحيوانُ [٣]

ومع إنه يرى في الخليفة الأمل لما يجزله له من عطاء إلا إنه لا يســتطيع أن يخفي الإحساس الأكبر المسيطر على نفسه من الإحساس بالخوف " وبوســعنا أن نلاحظ أن الشاعر قد أكثر من استخدام الفعل الماضي في المطلع ؛ ذلــك لمــا يستدعيه بعث الماضي من رحيل الأحبة والتذكر ، أما في وصفه للممدوح ، فقــد طغى استخدام الفعل المضارع ليثبت أمل الشاعر في بقاء حاضر الممدوح ممتــدًا عبر الزمان المستقبل من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليؤكد ذاته من خلال تأكيــده لفعالية ذات الممدوح ووقوفها في وجه الزمن " [٤]

---

(١) سَبْطٌ. والسَّبَيْطَرُ والسُّباطِرُ: الطَّوِيلُ ( لسان العرب مادة سبط (٤/ ٣٤٣) ، والشــفير حــد مشفر الْبَعِير الوريدان من الانسان (المخصص لابن سيده المرسي (٢/ ١٥٢) ، تح: خليــل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١ : ١٤١٧هـــ ١٩٩٦م . الخطم: خطم الدَّابَّة وَهُوَ مَا وَقع عَلَيْهِ الخطام من أنف الْبَعِير (جمهرة اللغة ، للحســن بــن دريد الأزدي (١/ ٦١٠) تح : رمزي منير بعلبكي ، الناشر: دار العلم للملايين – بيــروت ، ط١ : ١٩٨٧م .

(٢) الديوان ، ص ٥٤٩ .

(٣) أبو الأمناء : كنية هارون الرشيد ( الديوان ص ٥٤٩ ) ، والصَّوْبُ: نُزولُ المَطَر.( لســان العرب ، مادة صوب (١/ ٥٣٤)

(٤) شعر أبي نواس قراءة أسلوبية ، تأليف : عبد الناصر حسن محمد ، ص ١٩٢ ، الناشر : المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة ، ط١ : ٢٠٠٩م .

ثم يأتي المقطع الأخير في القصيدة ليتعاضد مع إحساسه بـبعض التفـاؤل والأمل الذي بدأ به في أول القصيدة ، ورغبته وحاجته الشديدة للعطاء، فقال [١] :

للجُودِ من كِلتا يديه مُحركٌ ∴ لا يستطيعُ بُلوغَهُ الإسكانُ

ويأتي الشاهد الثالث لينتقل الشاعر بالمتلقين له إلى موضع آخـر بـنفس العامل النفسي ، ولكن يمثل مشهدًا حربيًا موجزًا في سجل ذكريـاتهم مـع أهـل الشرك يوظف فيه فعل الخوف بتكراره ماضيًا مؤكدًا للحالة ، ومضارعًا مسـتمرًا يحمل معه طاقة نفسية مصممة على ما تريد الإلحاح عليه من ترهيبه لخصـومه بقوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ∴ لتخافك النطف التي لم تخلق

وهو يجزم بهذا ولم يأت ب ( لو ) أو ( أحسب ) أو ( يكاد ) حتى يبالغ في فكرة تحول الأشياء عن طبائعها حتى بلغ بها الغاية القصوى ، فهو يتعامل معهـا وكأنها حقيقة واقعية وقعت ، وهو بصدد الإخبار عنها .

فهو بهذه الأبيات يمدح الرشيد بما أوقعه في قلوب الروم وانتصاره المبهر عليهم وإذلالهم ، ولقد أراد أبو نواس بالمبالغة الإمعان في تأكيـد الصـورة دون النظر إلى الحقيقة المطلقة المرادة منها . قال ابن عبد ربه ما يـدل علـى هـذا بقوله: " فمجاز هذا البيت في إفراطه أن الرجل إذا خاف شـيئا أو أحبّـه أحبـه بسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه ودمه وجميع أعضائه ، فالنّطف التي فـي الأصلاب داخلة في هذه الجملة "[٢]

فالمبالغة جاءت من نسبة الشيء إلى ما لا ينسب له ، وهي صورة مفاجئة صادمة لذهن السامع أو القارئ مما يجعلها تتعمق بداخله وتشغل فكره وخيالـه ؛

(١) الديوان ، ص ٥٥٠ .

(٢) ينظر : العقد الفريد ١ / ٣٧ ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ : ١٤٠٤ هـ.

لأنه استطاع نقله من حالة الثبات لحالة الدهشة ، والتواصل مع صاحب الصورة ، وهو بهذا يضع القارئ والسامع في موقف المتخيل الذي لا يمكن أن يصل إلى حقيقة ما يتخيله ، كما أن هذه الصورة تؤتي أكلها عند الممدوح حتى يجزل له العطاء بسبب دهشة المخاطب .

وهنا نلحظ في الإيقاع العام للقصيدة ترداد ذات الشاعر من حين لآخر بعد فترات تكاد تكون متشابهة ندرك من خلالها مدى اضطراب نفس الشاعر وتوترها، وخوفها ، نتيجة لما يحدثه من مفاجآت تعبيرية غير متوقعة تنقل إيقاع نفسه المضطربة المتوترة بسبب تلك الاستعمالات المختلفة والمضطربة .

وهنا نلحظ دور الواو المتعلقة بما قبلها ، فالجملة واقعة بمثابة الدليل على ما قبلها ؛ لأنه لما قال : [١]

لَقَد اتقيتَ اللهَ حق تُقاتِهِ ∴ وجهدْتَ نَفْسَكَ فوقَ جَهدِ المُتقي

جاءت المبالغة بمثابة الدليل العملي على ذلك ، وهنا لم يستطع أبو نواس أن يخفي السبب النفسي الذي من أجله جاء بتلك المبالغة المتوغلة في المدح ؛ حيث صرح بمدى حاجة الشعراء إلى العطاء بقوله : [٢]

وبضاعةُ الشعراءِ إن أنْفَقْتَها ∴ نفَقَتْ وإنْ أكسَدتَها لم تَنْفقِ

والجناس بين ( أنفقتها ، ونفقت ) له أثره الظاهر في إحداث التناغم الصوتي ، وأثره الخفي في إثبات المعنى والارتياح له ، وبهذا الأثر الموسيقي الذي أحدثه الجناس تكون قد ارتسمت الصورة التي يريد أن يرسلها الشاعر في ذهن الخليفة .

---

(١) الديوان ، ص ٣٨٢ .

(٢) المرجع السابق الصحيفة نفسها.

ولا شك أن طباق السلب بين قوله :( أنفقتها ) ، وقوله : ( لم تنفق ) يزيد المعنى وضوحًا وقوة لإيراد المعنى مع ضده ، وتناسبًا مع الحالة النفسية للشاعر، وما يحمله من رهبة من الخليفة ، وأملًا في العطاء متمثلًا في شخص الشعراء مجتمعين .

فالقصيدة تعكس فكرة الحياة بالنسبة للشاعر ، وعلاقته بالخليفة الرشيد ، حيث بدأها بمدخل ليصنع من الممدوح رمزًا للهيبة ، والجدة ، والنشاط ، موحيًا من خلال ذلك بأنه الوسيلة التي تحميه من معاناة الزمن وأحواله ، فقال : [١]

خَلُقَ الشبابُ وشِرتي لم تَخْلُقِ ∴ ورمَيْتُ في غَرَضِ الزمَانِ بأفْوَقِ[٢]

تقعُ السهامُ وراءهُ وكأنهُ ∴ أثرَ الخوالفِ طالبٌ لم يلحَقِ [٣]

وأرَى قَوايَ تكاءدتْها ريْثَةٌ ∴ فإذا بطَشْتُ بطَشْتُ رِخْوَ المرفَقِ[٤]

ثم يسرد الشاعر مجموعة من الصور الشعرية تبرز بدورها الدور العميق الذي يؤديه الخليفة لحمايتهم من الأعداء والانتصار عليهم ، ومن المؤكد أن

---

(١) الديوان ، ص ٣٨٠ .

(٢) والخلق: خلق الْإِنْسَان الَّذِي طبع عَلَيْهِ ( جمهرة اللغة (١/ ٦١٨) ، والشِّرَّةُ: النَّشَاطُ وَالرَّغْبَةُ ( لسان العرب مادة شرر (٤/ ٤٠١) أفوق : السهم إِذا كَانَ فِي الفُوق مَيَل أَو انكِسَارٌ فِي إِحْدَى زَنَمتَيْه، ( لسان العرب مادة فوق (١٠/ ٣١٩)

(٣) الخَوالِفُ: النساءُ ( القاموس المحيط ، لابن يعقوب الفيروزآبادى (٨٠٧/١) ، تح : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ، ط٨ : ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

(٤) تكاءدت : شقت ( لسان العرب مادة كود ٣ / ٣٨٢ ) ، والرَّيْثُ: الإِبْطاء (لسان العرب ، مادة ريث (٢/ ١٥٧) ، المِرفَق مِنَ الإِنسان وَالدَّابَّةِ أَعلى الذِّراع وأَسفلُ العَضُد. (لسان العرب مادة رفق (١٠/ ١١٩)

القرع الصاخب الشديد الذي يشيع في القصيدة يصاحبه ترهيب من شخصه ، ومدى خوف الشاعر من سطوته ، وهو عين الفكرة التي يرمي إليها الشاعر .

ومن هنا يمكن القول :

إن الشاعر لما أشاع بمبالغته جو الترهيب والخوف من الخليفة عندما تحدث عن مدى خوف المشركين منه حتى وصل الأمر إلى النطف التي لم تخلق بعد ـ وفي هذا أثره القوي في التأثير على القارئ والسامع ولفت انتباهه ـ عمد بعد ذلك على الفور إلى ما يريد تحصيله ، والفائدة المرجوة من مدحه ، وهي التكسب بالشعر ، وليس الصدق في مدحه والإخلاص لشخصه .

**٢ ـ الأمل المطلق** .

قال أبو نواس من الكامل [١] :

تبارَكَ مَنْ سَاسَ الأمورَ بعِلْمِهِ ∴ وَفضلَ هارُونًا على الخُلفاءِ

نعيشُ بخيرٍ ما انْطَوَيْنَا على التقَى ∴ وَمَا ساسَ دُنْيانا أَبُو الأُمَناءِ

إمامٌ يخافُ اللهَ ، حتى كأنهُ ∴ يُؤملُ رُؤياهُ صباحَ مساء

يطالعنا الشاعر هنا بمبالغة أخرى يثبت من خلالها شمول العناية الإلهية للخليفة الرشيد ، من خلال بيان مدى حكمة الله ـ عز وجل ـ وحسن تدبيره بأن اختاره ، وفضله على جميع الخلفاء ، والمعنى : تبارك الله الذي دبر أمور الرعية بحكمته وعلمه حتى إنه فضل هاورن على جميع الخلفاء ، ثم بدأ في تسلسل وعرض مجموعة من الصور التي تؤكد فضل هذا الخليفة ، وتدلل عليها ، واختار له من الألقاب والأوصاف ما يتناسب مع أفعاله وأخلاقه .

(١) الديوان ، ص ٢٤ .

ولم يكتف الشاعر بتكبير صورة الخليفة الموغلة في المبالغة لتلك الدرجة التي أوصله بها لدرجة أن فضله على جميع المخلوقين ، بل يتفنن الشاعر في عرض العامل النفسي المسيطر عليه ليكشف عن السر الخفي في كل هذا التكبير والتعظيم ، فأبرزه في صورة كنائية على أنه نال من الفضل ما لم ينله أحد قبله بعلمه وحسن سياسته للأمور ، ويستمر في عرض مشهده النفسي ، فيبالغ في مدى خوفه من الله ، فصوره في صورة تشبيهية ، وكأنه يؤمل رؤياه صباح مساء ، وهذا كله أدعى للإعجاب والإكبار من شأن الممدوح .

وهذه الأوصاف التي خلعها على الخليفة تدل على أنها مبنية على أسس معرفية بشخصه ، وتنبئ عن مدى الآمال المعقود عليه فهو لا يصف حاله وفقط، بل يلمح إلى وصف حاله وحال قومه أيام حكمه ؛ لأنه حينما يقول : ( نعيش بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء ) فهو في بيانه يحاول أن يمزج بين حال الممدوح وحال قومه ، وكأنه بتلك الصور الرائعة يحاول أن يبرز مبررًا لتلك المبالغات الموغل فيها ، ومبررًا لإسهابه في صفاته الممجد لها . فهذه الصفات لا تعرف الانقطاع ، بل هي مستمرة دائمة متجددة بين اللحظة واللحظة كما دلت دلالة الأفعال المضارعة .

وقوله : ( نعيش بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء ) صورة تهز في النفس جميع الصور ، والانطباعات التي خلفها المطلع من تصور الديار وما عاناه فيها ، وتفتح آفاقًا جديدة ، فترى هناك صورة التقوى بينهم ، وحسن سياسته وتدبيره للأمور بالشيء الذي ينطوي عليهم، ويشملهم جميعًا على طريق الاستعارة التمثيلية، وهذا أدل في المبالغة، فهو يدل على هيئته وأثر صنيعه فيهم . فالشاعر يشبه حال الخليفة ، وما تركه من أثر ديني وسياسي بهيئة الشيء الذي يستغرقهم ، ويعمهم ، وبالنظر إلى هذه الاستعارة التمثيلية نرى أنها

جارية مجرى التعليل للمبالغة السابقة ، وبيان لسببها من الواقع الملموس لتدفع تعجب المتعجبين من ذلك الإكبار والتبجيل لشخص الخليفة الرشيد .

والتعبير بالانطواء دون الاشتمال مثلًا يدل على أنه شعور عام مستغرق الجميع ، كما يدل على فرط الإحساس به ، ومن هنا جاء التعبير بضمير الجمع ليحاول الشاعر من خلاله أن ينفصل عن ذاته حتى يشاركه المجتمع إحساسه ، فالانطواء على خير التقى وحسن تدبير الممدوح للأمور هما الألة التي يتجاوز بهما هموم الحياة وتناقضاتها .

وقد أكثر الشاعر من استعمال الأساليب الخبرية ، وهو منفصل عن ذاته في مبالغاته ، وهذا الانفصال يوحي بصدق هذا الإخبار ، حيث ترك الأحداث تعبر عن صاحبها ، وهذا يعد أبلغ للإخبار ، وأهلًا للتصديق .

وهذا التضخيم من شأن الخليفة في بيان مدى خيره وعطائه يعكس لنا قوة الآمال المتعلقة بالخليفة ، والذي يعده عنده هو السبب الرئيس في حياته ، وإلا فيكون الموت والفناء ؛ ولهذا ربط الاستمرارية في العيش حينما قال : ( نعيش ) بالاستمرارية في الخير ، فقال : ( بخير ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء )

والتكرار الحاصل للفظة ( ساس ) في قوله : ( تبارك من ساس الأمور بعلمه ) الراجعة إلى الذات العلية ، وفي قوله : ( وما ساس دنيانا أبو الأمناء ) الراجعة إلى الخليفة الرشيد ، فيه إشارة واضحة إلى الحالة التي يعيشها أبو نواس في ظل حكم الرشيد ، وما يطمع ويأمل فيه ، وهذا ما يكشف عن ذكاء الشاعر في استخدام هذه اللفظة ( ساس ) وتكرارها بدلالتها لاستثمارها بما يتوافق مع إحساسه ، وما تحمله نفسه من آمال في ظل حكم الرشيد .

وهنا عنى أبو نواس بتصوير حالة القوم في ظل حكم الرشيد ؛ ولذلك أتي بتلك الصورة الكنائية ( وما ساس دنيانا أبو الأمناء ) وهي كناية عن حكمة

الخليفة الرشيد في تدبير أمور رعيته ، ثم بعد ذلك جاء بصورة أخرى تتعلق بمدى علاقة هذا الخليفة بالله ــ عز وجل ــ وصور مدى خوفه من الله كأنه يؤمل رؤياه صباح مساء ، وفي هذا إشارة إلى مدى قربهم منه ، وأنسهم به ، وإكبارهم له ؛ ولهذا قد وصفه بقوله : ( إمام يخاف الله ) باعتباره قريبًا منهم ، وقدوة لهم .

ومن خلال المبالغتين السابقتين نلحظ أن الشاعر عمد إلى حالة خاصة للرشيد أراد الشاعر من خلالها إبراز هيبة الممدوح ووقاره ، واختار من الصور الشعرية ومن عناصرها المكونة لها ما يتناسب مع الحالة الشعورية المسيطرة على الجميع تجاه هذا الخليفة الرشيد .

وبهذا يكون أبو نواس قد لجأ إلى تلك المجموعة من المبالغات المختلفة في إيقاعها ، وكأنه مدفوع إليها دفعًا لمجموعة من الأسباب النفسية والاجتماعية ، وهو لم يعمد إليها لتنميق شعره ، بل ساقه إليها مجموعة من المشاعر النفسية كالعناء ، واليأس ، والحزن ، وغيرها من الحالات النفسية التي مر ببعضها ، وما زال يعاني من بعضها الآخر ، وهذا ما عبرت عنه أجزاء القصيدة في تناسق بديع، فها هو في مطلع القصيدة يجسد حاله المتناقض بين ماض مفعم بالبكاء والتردد والعناء ، وبين ما هو آمل فيه ، ومرتبط بوجدانه ، فيقول (١) :

لَقَدْ طالَ في رَسْمِ الديارِ بُكائي ∴ وقد طالَ تَرْدادي بِها وَعَنائي

كأني مُريغٌ في الديارِ طريدَةً ∴ أراها أمَامي مرةً وَوَرائي (٢)

---

(١) الديوان ص ٢٣ .

(٢) المريغ : الطالب ، وأَراغَ وارْتاغَ: بِمَعْنَى طَلَب وأَراد. تَقُولُ: أَرَغْتُ الصيْدَ، وَمَاذَا تُرِيغُ أَي مَا تُرِيدُ وَتَطْلُبُ. ( لسان العرب ، مادة روغ ، ٨/ ٤٣٠)

فهذا المطلع يصور مدى المعاناة التي تحملها الشاعر مع محبوبه ، وحينما تنطق بالألفاظ تحس بإيقاعها البطيء ، والثقيل ، ولا سيما عند الألفاظ ( طـال ، وبكائي ، ترادادي ، وعنائي ) فهذه الألفاظ مع ما فيها من ثقل في النطق ، فهـي ممدودة بالألف ؛ لتكتمل صورة البطء والثقل ، وقد سار الشاعر بـالمتلقي مـن خلال التشبيه في البيت الثاني ليصور المشهد شاخصًا ، وهو مطلوب طريد فـي هذه الديار ، والتي تحولت بالنسبة له كأشباح يراها مرة من أمامه ، ومرة مـن خلفه .

فبداية القصيدة تعبير عن آهات الألم التي عاناها الشاعر ، فجاءت حروفها تنسجم مع الحالة الشعورية للشاعر ، وإنما عمد الشاعر في المطلع إلـى إبـراز تفاعل ذاته مع الموضوع المرتبط بنفسيته محاولًا وضع المتلقي أمام مأساته من خلال ألفاظه ، فكأن كل ما تجيش الذات به من كأبة وضنك جعل الـديار انعكاسًـا لنفسية الشاعر ، ومتحدثة عنها بالمشهد التخيلي ، فقد صور نفسه في هذه الديار طريدًا ، والزمن سلط عليها أحداثه بالخراب ، فتحولت الديار وكأنها مملوءة أشباحًا يراها مرة أمامه ، ومرة خلفه ، وجمال التخييل هنا جاء من جَعْلِ نفسـه طريـدًا مطلوبًا في هذا الدار من قبل الزمان ، ووظف هذا لخدمة ما يريد إضفاءه علـى الخليفة من صفات في بقية القصيدة ، وجعله أقوى من الدهر ، فكأن كل ما يحويه الدهر من قوة جعل في مقابله قوة وهيبة الرشيد التي سـلبت مـن الـدهر كـل خصوصياته .

وعندما مدح الشاعر الخليفة على نحو مباشر من المبالغة ظلـت المعـاني السابقة التي تدل على المعاناة سائدة من أول القصيدة ، وألح في مدحـه علـى صفات الخليفة التي يتحلي بها من قوة وعزيمة ، وحسن سياسة للأمور .

فالبداية تشاؤمية محضة ، والنهاية مديح محض ، وقاسـمهما المشـترك تعلق الشاعر بالممدوح ، وعزاؤه عن الحرمان ما يتمتع به الخليفة من صفات .

وكأن في هذه المدائح شفاء لصدره من ظلم الزمان ، فتكون البداية عبارة عن شكوى مما يعاني منه من بؤس وحرمان ، ثم جاءت النهاية ليسلي بها نفسه بمدائح الخليفة ، والعلاقة بين البداية التشاؤمية ، والنهاية التفاؤلية هي علاقة السببية ، وذلك أن معاناة الشاعر، وما لاقاه من ويلات هو الذي جعله يتوجه للخليفة بمثل هذه المبالغات ؛ لأنه يعلم أن في يده النجاة .

وقد كان من المتوقع في قصيدة الغرض الرئيس منها مدح الخليفة أن يصف جمال هذه الديار ، بيد أنه عدل عن ذلك واتخذ من هذه الديار وسيلة لإشاعة الحزن والبكاء ، فاستكثر من الألفاظ التي توحي بالحزن العميق ، وإنما قصد الشاعر استهلال القصيدة بذلك ليتعايش المتلقي مع ما يعاينه بحيث لا يتفاجأ بالتعبيرات المختلفة من الشاعر ، والمبالغ فيها سعيًا وراء إيجاد حلول للخروج مما يعانيه ؛ ولهذا نراه كعادة الشعراء الجاهليين في المديح يأخذ رحلته بالناقة إلى ديار الخليفة التي هي مصدر الكرم ، فيقول (١):

فَلَما بَدا لي اليأسُ عدَيْتُ ناقتي ∴ عن الدارِ واستولى علي عَزَائي
إلى بيتِ حانٍ لا تَهر كلابُهُ ∴ علي وَلا يُنكِرْنَ طُولَ ثُوَائي(٢)

فانظر إلى مدى التناقض في المشاعر، فدار المحبوبة عدها مصدر البكاء والعناء ، ثم رجع فجعل دار الخليفة مصدرًا للجود والكرم ، ثم واصل الشاعر في بيان حاله المتناقض من خلال نظرته للخمر ، فهي مع كونها السبب في فقره ، وما آل إليه من الإحساس باليأس كما بين بقوله(٣) :

---

(١) الديوان ، ص ٢٣ .
(٢) ثوا: الثَّواءُ: طولُ المُقام، ثَوَى يَثْوي ثَواءً وثَوَيْتُ بِالْمَكَانِ وثَوَيْته ثَواءً وثُوِيّاً مِثْلُ مَضَى يَمْضِي مَضاءً ومُضِيّاً ( لسان العرب مادة ثوا ، ١/ ١٢٥)
(٣) الديوان ، ص ٢٤ .

فإنْ تَكُنِ الصهباءُ أوْدَتْ بتالِدي ∴ فلَمْ تُوقِني أُكْرُومَتي وَحَيائي (١)

فما رِمْتُهُ حتى أتى دونَ ما حَوَتْ ∴ يميني حتى رَيْطتي وَحِذائي (٢)

إلا إنه يعدها الشعاع الوحيد المضيء في حياته الذي يحس فيها بالراحة والسرور ، فقال (٣) :

وكأسٍ كمِصْباحِ السماءِ شرِبْتُها ∴ على قُبْلةٍ أوْ موعدٍ بِلقاءِ

أتتْ دونَها الأيامُ حتى كأنها ∴ تَساقُطُ نُورٍ من فُتُوق سَمَاءِ (٤)

ترى ضوءَها من ظاهرِ الكأسِ ساطعًا ∴ عليكَ وَإن غَطيتَها بِغطاءِ

ومن هنا ندرك أن أبا نواس لم يسر على طريقة واحدة ، ولم يتمسك بأسلوب واحد ، وإنما سلك سبلًا متنوعة في موضوعها ؛ لأجل أن يجعل منها سبلًا يمتطيها حتى يصل إلى الغاية المرجوة من مدحه .

---

(١) التَّالِدُ: الْمَالُ الْقَدِيمُ الأَصلِيُّ الَّذِي وُلد عِنْدَكَ ( لسان العرب ، مادة تلد ، ٣ / ٩٩ )

(٢) يقول : إنه أنفق في سبيل الخمر ماله ، حتى إنه رهن ماله وحذاءه ( الديوان ص ٢٤ )

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) فتق: الفَتْق: خِلَافَ الرَّتْق. فَتَقَهُ يَفْتُقُه ويَفْتِقُه فَتْقاً: شقه ( لسان العرب ، مادة فتق ،١٠/ ٢٩٦)

## المبحث الثاني

**دلالة المبالغة على الأحوال النفسية عند أبي نواس في مدحه للخليفة محمد الأمين .**

لقد كانت علاقة أبي نواس بالخليفة محمد الأمين لها صداها ــ أيضا ــ في شعره ، ومبالغاته [١]، فهو نديمه وصديقه الذي يتعاقر معه الخمر والملذات ، وكانت حقيقة الممدوح حاضرة في نفس الشاعر ، وفكره ، ولم يستطيع أن يغفلها في شعره ، فصورة نديمه الذي يقارعه الخمر لا تستطيع أن تفارق خياله ، ومع أنه لم يستطع أن يبوح بها بصورة مباشرة في مبالغاته إلا إنه أوردها في ثنايا كلامه ، وجعل القارئ يستنبط من قرائن ودلائل الأحوال ــ التي دلت عليها الأساليب ــ ما يشير إلى حقيقة هذا الخليفة ، والمشاعر النفسية التي من أجلها بالغ في وصفه حتى أخرجه في مدحه إلى حد غير مألوف ، وهاك بيان بعض من ذلك : ــ

**١ ـ الأمل المشحون بالقلق والتوتر .**

قال أبو نواس من المديد :

**يا أمينَ اللهِ عِشْ أَبَدًا ∴ فإذا أفنَيْتَنَا فَكُن** [٢]

---

(١) لقد جاءت أبيات منسوبة إلى أبي نواس في مدحه للأمين ، ولم أعثر عليها في ديوانه ، ومن ذلك : (تنازع الأحمدان الشّبه فاشتبها ... خلقا وخلقا كما قدّ الشّراكان ( ينظر : شرح الشفا ، المؤلف أبو الحسن نور الدين الهروي القاري ٢ / ٤٤٥ ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط١ / ١٤١٢هـ ) ، كما أن هناك أبيات جاءت في ديوانه إلا أن ابن المعتز نسبها إلى إبراهيم النظام ، واستحسنها ، فقال :(ومما يستحسن من شعر النظام قوله: ألا يا خير من رأت العيون ... نظيرك لا يحس ولا يكون ، وفضلك لا يحد ولا يجاري .... ولا تحوي حيازته الظنون ، خلقت بلا مشاكلة لشيءٍ .... وأنت الفوق والثقلان دون ) ( طبقات الشعراء ١ / ٢٧٢ )

(٢) الديوان ، ص ٥٥١ .

قد اشتمل هذا البيت بما فيه من مبالغة خارجة عن حد المألوف على أسلوب جمع بين نداء وأمر خاطب بهما الشاعر ممدوحه محمد الأمين بقوله : " يا أمين الله عش أبدًا " وهذا النداء بذلك الوصف بني على لون من التمييز والتشريف ؛ حتى يتسنى لصاحب هذا النداء أن يتوجه بالقول إلى صاحب هذا الوصف ، وتلك الميزة ، وذلك التشريف ، ويتصرف في الحديث معه بما شاء مستعينًا بما يحمله هذا الممدوح من صفات تميزه وتشرفه عن غيره ، قال قدامة ابن جعفر : " فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاءل لهذا الممدوح بقوله: عش أبدًا ، أو دعا له، وكلا الأمرين، مما لا يجوز، مستقبح" [١].

وقد ناداه بـ ( يا ) الموضوعة للبعيد ، حتى يتمكن بهذا النداء بما فيه من امتداد للصوت من إفراغ قدر من التوتر مع هذا الامتداد ، ثم يأتي بجملة ( عش أبدًا ) بما فيها من أمر ؛ لأنه يرى في كينونة هذا الفعل كينونة للمجتمع بأثره ، حيث ربط بين حياته وحياتهم ، وفنائه وفنائهم بقوله :( فإذا أفنيتنا فكن ) ، والتعبير بالفناء دون الموت إعراب عن ما يحققه فقد الممدوح من هلاك وخراب، فالفناء هو فناء آخر الشيء بعد فناء أوله [٢]، وإضافة الفناء إلى ضمير الجمع الـ ( نا ) على سبيل إشاعة الأسى وإظهار الفجيعة ؛ لأن الرجل الذي احتوت خصاله الجميع ، فمماته ممات للجميع . كما إن امتداد الصوت بضمير الجمع الـ ( نا ) يكشف عن مدى توتر وقلق الشاعر من عدم حدوث المأمور به ، لما في

---

(١) نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، ص ٨٤ ، الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، ط١ :، ١٣٠٢هـ ، وينظر : الموشح ، ص ٣٣٤ ، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ، لابن رشيق القيرواني (٢٢٤/١) ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر: دار الجيل ، ط٥ : ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ، ص ١٠٤ ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم ، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر( بدون تاريخ )

بقاء حياة الممدوح من تعلق وارتباط ببقاء حياتهم ؛ لأنه في النهاية يريد أن يقرر أن بقاءه من بقائهم ، وما يطرأ على حياته يطرأ على حياتهم .

وإذا نظرنا إلى دلالة ( إذا ) الشرطية وما تفعله من إسباغ دلالة التأكيد في تحقق جوابها ، وبين ما يفعله فعل الأمر من دلالة على وجوب تحقق المأمور به، نجد أن دلالة اللفظتين يخلق جوًا من التناقض والتضاد الدلالي في تلك المبالغة ؛ لأنها جمعت بين أمرين ، أحدهما يدعو إلى تحقق المطلوب من الأمر الأول ، والآخر يدل على اليقين من تحقق الأمر الثاني في حالة عدم تحقق الأمر الأول ، وهذا يجسد لنا نفسية الشاعر ، فيجسد أملًا كان الأمر الأول وسيلة إليه ، ويجسد توترًا وقلقًا كان الأمر الثاني بقوله : ( فكن ) دالًا عليه .

وبهذا التقابل بين الحياة المرتبطة بالممدوح ، وبين الفناء المرتبط بالمجتمع يعمد الشاعر إلى رسم واقع له علاقة بشغاف قلبه ، فيتوجه بالخطاب إليه بأن يأمره بالعيش أبدًا بحيث لا يزول عن الدنيا ؛ لأن في زواله عنها فناء لهم أجمع ، وفي هذا أمل مثقل بجو من التوتر والقلق ، فهو ينكر الفناء مؤكدًا عليه هذا الإنكار بعطف الفناء على الأمر الموجه إليه بالحياة ، وجعله سببًا فيه من خلال جملة الشرط وجوابه ، وهذا التعبير ( فإذا أفنيتنا فكن ) بما فيه من تشويق ينقلنا من جو الممدوح إلى جو الشاعر ، ويحول عاطفتنا وتفكيرنا إلى تلك الصورة الجديدة التي وضعها الشاعر أمامنا لنتأملها ، ونفكر فيها ؛ لنقف من خلالها على وجه العلاقة بين حياة الممدوح ، وحياة الآخرين .

وهذا يعني أن هذا الانتقال بما فيه من استحضار للعاطفة والفكر له أثره الواضح في تجديد نشاط القارئ أو السامع واستدعائه إلى شيء جديد يغير إطار فكره وعاطفته تجاه هذا الأمر ، فجاء بعد ذلك بالاستفهام الذي يحمل معنى الإنكار؛ ليكشف عن مكنون نفسه ، فيقول[١] :

---

(١) الديوان ص ٥٥١ .

كيفَ تَسخو النفسُ عنك، وقد ∴ قمتَ بالغـــالي من الثمنِ ؟

سَـن للنـاس النـــــدى فنَـدوا ∴ فكـــــأن البخـلَ لم يَكُـنْ

والغرض من هذا الاستفهام هو إبراز الآمال المتعلقـة بهـذا الممـدوح ، والشاعر هنا يقدم حقيقة واقعية كشف من خلالها عن مكانة الممدوح وشـمائله التي يتصف بها ، فهو بهذا يستحق العيش ودوام الحياة ، وجاء الاستفهام ليقرر هذه الحقيقة ، ويدعو للتفكير فيها ، ويتخذ منها أمثلة ودلائل علـى أن حيـاتهم مرتبطة بحياته ؛ ولينكر على النفس أن تسخو عنه مع ما قدمه لها من الغالي من الثمن .

والشاعر بالفعل (عش) يحمل رغبة شديدة ، وأملًا قويًا في استمرار حيـاة الممدوح ، وبالفعل ( فكن) يحمل قلقًا وتوترًا نفسيًا شديدًا من تخيل عدم حـدوث المأمور به ، وتخيل لذهاب الممدوح عن الحياة التي لم يعد فيها ما يستريح إليـه الشاعر غيره ، فهو نديمه وصديقه ، وصياغة هذين الفعلين بما فيهما من إيقاع سريع يؤكد معنى كل منهما ، ويبرز بدوره رغبة الشاعر الملحة ، وأمله الشـديد في بقاء حياة الممدوح على هذه الحياة ما بقي الزمان .

ولقد بدأ الشاعر البيت بأسلوب النداء ثم أعقبه بأسلوبي أمر ليكـون هـذا الإيقاع السريع ملائمًا لحالة الانفعال الشديد والتوتر الحاد الـذي يعقبـه تخيـل المأساة الشديدة التي سوف يعيشها لو مات الممدوح .

وبذلك نجد أن الشاعر يطوي وراء هذه الأساليب الإنشائية أملًا قويًا وقلقًـا حادًا لعظم ما تعرض له في حياة الرشيد ، وهو يتذكر عهدًا مضى بينـه وبـين الرشيد بحزن وأسف ، ونفس متألمة ، ويتطلع إلى عهد جديد بأمل وتفاؤل فـي حياة نديمه الخليفة الأمين .

والشاعر يحاول أن يذكر من خلال القصيدة ما يبعث نفسه على الأمان والاطمئنان لما هو آت ، فبدأ قصيدته بما يدل على تساوي نمط الحياة بينه وبين الأمين من حيث العشق ، وحب الهوى ، مع إظهار بعض الشماتة لما وصل إليه مآل تلك الديار ، وما فعله الزمان بأهلها ، مع إشارة إلى حاله وما لقيه فيها جراء ما فعله الوشاة ، فقال [١]:

يا كثيرَ النوحِ في الدمَنِ ∴ لا عليها بل على السكنِ[٢]

سُنَةُ العشاقِ واحدةٌ ∴ فإذا أحببتَ فاستَكن

ظن بي مَنْ قد كَلِفتُ بهِ ∴ فهو يَجْفُوني على الظنن

باتَ لا يعنيهِ ما لقِيتْ ∴ عَيْنُ مَمْنوعٍ مِنَ الوَسَنِ [٣]

ثم ينتقل بالقصيدة وبنفسه إلى خطوة أخرى أكثر تحررًا ، فيقول [٤] :

فاسقِني كأسًا على عَذَلٍ ∴ كَرِهَتْ مَسْموعهُ أُذُني

من كُمَيْتِ اللونِ صافيَةٍ ∴ خير ما سَلَسْلتَ في بَدَنِ[٥]

ما اسْتَقَرتْ في فُؤادِ فتى ∴ فَدَرَى ما لوْعةُ الحزَنِ

وبهذا تكون حقيقة الممدوح حاضرة في نفس الشاعر وفكره ، ولا يستطيع أن يغفلها في شعره ، فصورة نديمه الذي يقارعه الخمر لا تستطيع أن تفارق خياله ، ومع أنه لم يستطع أن يبوح بها في أول القصيدة إلا أنه أوردها تباعًا ،

---

(١) الديوان ، ص ٥٥١ .

(٢) الدمنة : آثار الدار وما سود بالرماد ، مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٣٣٤) تح: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٣ : ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

(٣) الوسن : النُعاسُ ( الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٢١٤)

(٤) الديوان ، ص٥٥١ .

(٥) كميت اللون : خالصةُ اللونِ ( ينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٤ / ١٣٤٦)

وجعل القارئ يستنبط من قرائن ودلائل الأحوال ــ التي دلت عليها الأساليب ــ ما يشير إلى حقيقة هذا الخليفة وطبيعة العلاقة بينه وبين الممدوح ، وهنا نلحظ جانبًا من الشماتة والسخرية واضحًا حينما قال له :

تضحكُ الدنيا إلى مَلِكٍ ∴ قامَ بالأحكامِ والسنَنِ (١)

فكيف يكون قائمًا بالأحكام والسنن ؟! وكيف يكون أيضًا ( أمين الله )؟ ! وهو نديمه الذي يتعاقر معه الخمر ، وهذا بدوره يعكس لنا أن قيمة ومقدار هذا الممدوح في نفس الشاعر مرتبطة بقيمة ومقدار الخمر في حياته ، وأن الحياة الحقيقية عنده هي الحياة مع الخمر ، وأن الحياة الأبدية إنما طلبها من الخليفة ليس لأجل الحياة ذاتها ، وإنما لأجل الحياة الخمرية التي بقاؤها مرتبط ببقائه ، وزوالها مرتبط بفنائه ، وهي السر الذي يمده بالحياة بأكملها ، ويضيف إلى روحه روحًا جديدة ، وهو ما عبر عنه صراحة حينما قال :

قهوَةً تُقْرِنُ في جِسْ ∴ مكَ معَ رُوحِكَ رُوحًا (٢)

## ٢ ـ الهدوء النسبي

قال أبو نواس من البسيط (٣):

يا ناقُ لا تَسأمي أو تَبلُغي مَلِكًا ∴ تَقبيلُ راحَتِهِ والركنِ سيانِ(٤)

متى تحطي إليه الرحلَ سالِمَةً ∴ تَستَجمعي الخَلْقَ في تمثالِ إنسانِ

---

(١) الديوان ، ص ٥٥١ .
(٢) المرجع السابق ،ص ١٣٤ .
(٣) الديوان ، ص ٥٥٤ .
(٤) الركن : أي ركن الكعبة ( المرجع السابق الصحيفة نفسها)

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

وقال من البسيط :[١]

| | | |
|---|---|---|
| مَـد الإلـهُ عليـه ظـــــل مملكـةٍ | ∴ | يلقى القصي بها والأقرَبَ الداني |
| إن يُمسِك القَطرُ لا تُمسكْ مواهبُه | ∴ | ولـي عهـدٍ يـداهُ تَسـتَهلانِ |
| هـو الـذي قـدرَ اللهُ القضـاءَ لَـهُ | ∴ | ألا يكـونَ لـه في فضـلِهِ ثـانِ |
| هـو الذي امتحنَ اللهُ القلـوبَ بـهِ | ∴ | عما تُجمجمُ من كفـرٍ وإيمـانِ |

وقال من البسيط [٢]:

| | | |
|---|---|---|
| محمدٌ خيرُ من يمشي على قـدَمٍ | ∴ | ممنْ بـرا اللهُ من إنسٍ ومن جـانِ |

جاءت هذه الأبيات جميعها في قصيدة واحدة ؛ حيث بالغ الشاعر في تصوير منزلة الممدوح حتى أوصله إلى درجة التقديس ، بل ودرجة الأنبياء والمرسلين .

فالشاعر بالشاهد الأول جعل تقبيل راحة الممدوح ، وتقبيل الركن اليماني سيان في الفضل على سبيل التشابه والمساواة ، وبهذه الصورة يحاول الشاعر أن ينقلنا من الجو المأساوي الذي يعيش فيه إلى جو مفعم بالراحة والأمان والتقديس، وحول عاطفتنا إلى الصورة الجديدة التي وضعها لذلك الملك لنتأملها ونقف من خلالها على أوجه الشبه بينها وبين الركن اليماني .

والشاعر بقوله :(سيان) يعمق ويؤكد ويثبت المشابهة بين الممدوح وبين الركن اليماني في الرتبة ، والمكانة ، والتقديس ، والتبجيل ، والشاعر يتخذ من مخاطبة الناقة بالتوجه إلى ذلك الممدوح مدخلًا للحديث عن مكانته .

(١) الديوان ، ص ٥٠٤ .
(٢) المرجع السابق الصحيفة نفسها .

ولا شك أن النداء الذي يعقبه نهي يخفي وراءه حزنًا عميقًا من الماضي ، وقلقًا على الحاضر بما ينكره على الناقة من السأم ، وهو يحاول أن تتفاعل وقائع الحاضر مع ذكريات الماضي ليكون رؤية مصغرة لصورة الماضي بمأساويته ، وصورة الحاضر بإشراقه ، ومن هنا بدأ يحث الناقة على السير تجاه هذا الملك بقوله[١] :

متى تحطي إليه الرحْلَ سالِمَةً ∴ تستجمعي الخلقَ في تمثالِ إنسانِ

فأبو نواس يطلب من الناقة من خلال الاستفهام أن تتحمل مشاق السفر ، وألا ينزل بها السأم حتى تبلغ الأمين ، فترى كيف جمع الله العالم في صورة إنسان ؟ وفي هذا دلالة على مدى اللهفة الشديدة ، والتطلع الجامح نحو الممدوح، وهو يحاول من خلال هذا الاستفهام أن يفرغ ما في نفسه من مشاعر مثقلة بكاهل الماضي ، وكأن في هذا الممدوح ما يزيل عنه كاهل الماضي بأحزانه ، وهو يحاول أن يجعل من صفات الممدوح صفات مجسدة شاخصة لتحفيز الناقة نحو الوصول إليه سالمة من خلال تلك الصور الخيالية التي وضعها له بقوله : ( تستجمعي الخلق في تمثال إنسان ) فهو يجعل من أخلاقه وكرمه كيانًا مجسدًا وكأن أخلاق جميع الخلق استجمعت في شكل تمثال ، هذا التمثال يمثله ويدل عليه هذا الممدوح وواقعه .

فهو ملمح نفسي يجنح الشاعر من خلاله إلى الخروج من الحالة التي يعاني منها من قلق وتوتر إلى بعث الهدوء النسبي في نفسه .

ومن هنا عمد الشاعر بعد ذلك إلى السرد الخبري ليخلط بين التمني وإمكانية التحقق مع الاعتماد على الفعل الماضي ، وكأن ما يتمناه في شخص الممدوح أصبح واقعًا معاشًا ، ثم يتبع كل مدح بمدح آخر يعقبه للدلالة على تجدد

---

(١) الديوان ، ص ٥٥٣ .

الثقة والطمأنينة في نفسه من هذا الممدوح ، وهذا كله يعطي انطباعًا للحالة الشعورية التي يعيشها ، ومحاولة بعث الهدوء في نفسه ، وإخراجها مما تعانيه من قلق وتوتر .

ويأتي الشاهد الثاني في القصيدة بقوله :

مَد الإلهُ عليهِ ظل مملكةٍ ∴ يلقى القَصِي بها والأقرَبَ الداني

وكلمة (ظل) تدل على المكان الذي يصل إليه ضوء الشمس ، ولا تصل إليه حرارتها وقد مثل حال أهل هذا المكان بحال من يجلس في وضح النهار تحت شجرة عظيمة كثيفة أرواقها ، فهو يرى كل ما حوله ؛ لأنه في نور واصل له من الشمس ، ولكن أشعة الشمس الحارقة لا تناله ولا تصل إليه ؛ لأنه جالس تحت الشجرة ، فهو مستتر بظلها ، أي في المكان المحجوب عن أشعة الشمس ، وهذا الظل إنما هو مدد من الرحمن ، ونعمة من نعم الله اختص بها هذا الممدوح ، ولا شك أن إسناد الفعل إلى الذات العلية فيه من التعظيم والتشريف والتكريم لذات الممدوح ما فيه .

فهو مشهد يعكس واقع المكان بوجود الممدوح من خلال الاستعارة التمثيلية، وهو يعتمد بشكل أساس على المبالغة ، يستخدم الشاعر من خلالها تعبيرات مختلفة تعكس العامل الداخلي النفسي المسيطر على الشاعر ، وهنا نجد حرف الاستعلاء ( على ) الذي يمثل استعلاء وقدرة الله النافذة ، وفي إسناده للضمير الراجع إلى الممدوح بقوله ( عليه ) تمثيل وتجسيد لحاله وهيئة تمكنه من المملكة ، وخيره الذي يشمل الجميع القاصي والداني بهيئة الراكب في اعتلائه على مركوبه ، والتمكن منه ، والتصرف فيه ، والقدرة على تسييره .

ثم يأتي بالبيت التالي ليكون بمثابة الاحتجاج العقلي على هذه المبالغة بقوله :

إن يُمسِكِ القطرُ لا تُمسكْ مواهُبه ∴ وَلي عَهْدٍ يَداهُ تَسْتَهلانِ [١]

فهو يريد أن يثبت أن كرم الممدوح وشمائله لا يمكن أن يماثله أحد فيها حتى القطر الذي غالبًا ما يشبهون الكريم في عطائه به دون العكس ، ثم أعقب هذا الوصف بوصف آخر كناية عن شدة كرمه ، وهو أنه ولي عهد يداه تستهلان، فهو من الخلفاء الذي يداه تستهل بالجود والكرم ، وليس من أولئك الذين يعميهم الملك والسلطة .

ثم تابع المبالغة في الوصف بقوله : (هو الذي قدر الله القضاء له ) ، وبقوله : ( هو الذي امتحن الله القلوب به ) للتأكيد على أن الله هو الذي أمده بتلك الصفات ، واختاره ليكون خليفته في الأرض ، وليمتحن به القلوب ، ويكشف ما بها من كفر وإيمان ، واختار للتعبير عنه الضمير المنفصل ( هو ) ، واسم الموصول ( الذي ) ليشعر السامع بعظمة هذا الخليفة ، ومكانته عند الله .

ولم يكتف بذلك بل إنه جعل رضاه من رضا الله ، وسخطه من سخط الله ، وأن دفع حقه بمنزلة دفع ما في القرآن من آيات وبرهان ، فقال [٢]:

وإن قومًا رَجَوْا إبْطالَ حَقِكُمُ ∴ أمسَوْا من اللهِ في سُخْطٍ وعِصيانِ

لنْ يدفَعوا حَقَكمْ إلا بدفعِهمْ ∴ ما أنـــزَلَ اللهُ من آيٍ وبُرْهانِ

وعبر هنا بأسلوب الشرط ليثير المتلقي بما يحمله هذا الأسلوب من التلازم بين الجملتين ، وعليه فإن الغرض الرئيس من الجملة الشرطية هو بيان الجزاء المترتب على إبطال حقه ؛ فجاء جواب الشرط ــ بما يحمله من كناية ــ فيه

(١) تستهلان : تمطران ( ينظر : شرح الديوان ، ص ٥٥٤)
(٢) الديوان ، ص٥٥٤ .

مبالغة عن كفاية الله ــ عز وجل ــ له ، والتعبير بلفظ الجلالة فيه من التحذير الشديد ما فيه بما يحمله من دلالة على عدم القدرة على رد سُخط الله وغضبه بأي طريق ، أو مواجهته بأي سبيل . واختار للتعبير ( إن ) الشرطية التي تفيد الشك والتقليل ؛ ليدلل على أن أمر إبطال حقه أمر مشكوك فيه خارج عن نطاق المعقول ، ثم جاء البيت الثاني ــ بما يشتمل من تشبيه ضمني ــ يحمل توكيدًا معنويًا مبالغًا فيه على أن ما يمكن اقترافه في حق الخليفة الأمين يعد أمرًا خارج عن نطاق الدين .

وبهذا التقابل والتشابه يكون الشاعر قد أزال أي شك أو طعن يثار ضد الخليفة الأمين وإنما عمد إلى نفي هذا كله بالتأكيد المبالغ فيه عن طريق القصر؛ ليكون دليلًا على براءة ساحته ؛ ودليلًا على ما امتلأت به نفس الشاعر من أحاسيس تجاه الخليفة الأمين .

ثم ختم أوصاف الخليفة الأمين بالشاهد الثالث ، فقال :

محمدٌ خيرُ من يمشي على قَدَمٍ ∴ ممنْ بَرَا اللهُ من إنسٍ ومن جانِ

وهو بهذا الشاهد يمضي في ذكر خيرية الممدوح والإعلاء من شأنه بهذه المبالغة التي أوصلته بتفضيله على جميع المخلوقين ، ومثل هذه المبالغات لا بد لها من تداعيات نفسية وجدوى تنجم عنها ، وهنا نلحظ أن هذه المبالغات في مجموعها يحاول الشاعر من خلالها أن يثور على التحفظات التي يمكن أن تثار حول هذه الشخصية ، وبناء جسر قوي بينه وبين الخليفة من خلال هذه المبالغات التي تحاول أن تبرز بعض صفاته كالبساطة ، والكرم ، والتقديس ، والاختلاف عن الآخرين ، ولكن هناك صورة نفسية تمثل علاقة السببية بين نفسه وبين ما يتمثله ويصوره من صفات في شخص الممدوح يحاول من خلالها أن يقدم رؤية جديدة لشخص الخليفة الأمين تخالف المعهود في الخليفة الرشيد ؛ مما ينجم عنها التحرر من انفعالات القلق والتوتر والخوف من الأمين ، وقد اعتمد في ذلك على

مجموعة من البراهين في مبالغاته الواردة في القصيدة ، أحدها : واقع ملموس من خلال علاقته به ، وثانيها : خيال جارف ؛ ولهذا أقام معظم تراكيب ألفاظه معتمدة على الحقيقة يعضدها بعض الأساليب الاستعارية والكنائية بما تدل عليه من تصوير الأمور المعنوية كأنها أمر حسي ملموس دون إلباس أو إبهام ، وهذا ما انعكس على جميع جزيئات القصيدة في المطلع والصلب والختام ، فقال في المطلع [١]:

يا مَنْ يُبادلُني عِشقًا بسُلوانِ ∴ أمْ مَنْ يَصَيرُ لي شُغلًا بإنْسانِ

كيما أكون لَهُ عَبْدًا يُقارِضُني ∴ وَصْلًا بوَصْلٍ وهجرًا بهجرانِ

فنجد في المطلع ألفاظ ( يبادلني ، عشقًا بسلوان ، وصلًا بوصل ، هجرًا بهجران ) وكلها ألفاظ تشترك في تعميق ملمح مهم في نفسية أبي نواس ، وهو الغياب لذكرى الوصال مع امرأة غاب ذكرها في الكلام ، لكنها حاضرة في الوجدان ، ولم يستمر الشاعر في عرض لوازم حضور العالم النسائي بألفاظه ، ولكنه انحرف بذكائه إلى منحى آخر ارتفع به من دلالة مشحونة بالوجع والحرمان في الماضي إلى دلالة مشحونة بالحب والوصال في الحاضر .

والفعلان : ( يبادلني ) ، و ( يقارضني ) يلخصان طبيعة العلاقة بين أبي نواس والأمين ، فالأَصل فِي الإِبْدَال : جَعْلُ شَيْءٍ مَكَانَ شَيْءٍ آخَرَ [٢] ، وأصل القرض : ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازي عليه [٣] ، ومن هنا نلحظ أن التعبير بالتبادل والتقارض دون التجاذب مثلًا يبين أن العلاقة بينهما ليست قائمة على العاطفة ، وإنما قائمة على الأخذ والإعطاء ؛ لأن الخليفة وجد فيه ضالته باعتباره نديمه في اللهو والمجون .

---

(١) الديوان ، ص ٥٥٣ .

(٢) لسان العرب مادة بدل ، ١/ ٤٨)

(٣) المرجع السابق ، مادة قرض ، ٧ / ٢١٦ ).

والتكرار لألفاظ بعينها في المطلع يسلط الضوء على الموضع الحساس عند الشاعر ، وهذا الإلحاح يضع أيدينا على الفكرة المسلطة على نفسيته ، والأزمة النفسية التي كان يعاني منها ، وفي استدعائه للممدوح بـ ( يا ) النداء دلالة على أنه في طلب دائم أن يجود عليه بفيض من الوصال كي يطفئ في نفسه نار الذكريات الماضية المشتعلة .

ودلالة ( كيما ) بما فيها من دلالة على التعليل ، وبما فيها من استطالة في التعبير فيها تمثيل للحالة الشعورية التي يعيشها الشاعر بما فيها من هيجان عاطفي ، وتفريغ لحظي .

وهنا يبدو المشهد متوترًا ، فالشاعر يطلب من الخليفة أن يبادله الوصل بالوصال ، والهجر بالهجران ، وفي هذا الطلب شيء من الانفعال والتوتر ؛ إذ إنه يحاول أن يقرر مبدأ التكافؤ في الحب بينه وبين الخليفة بحيث يبادله الوصل بالوصل والهجر بالهجر [١] ، مع أنه في المطلع يقرر أنه عبد للأمين ، والعبودية تقتضي الانصياع والخضوع للمعبود [٢] ، وبهذا الحس المتوتر يدخلنا الشاعر إلى رحاب المقاطع المتوالية ــ التي أشرنا إليها ــ بما فيها من مبالغات ، وأول ما يثير به الأذهان هو النداء الموجه للناقة عبر رحلة إلى دار الخليفة ، وبهذا ينقل الشاعر هذا التوتر الذي يعتريه إلى الناقة ، ويحاول أن ينتقل بنفسه من دور المنفعل المتأثر إلى دور الفاعل المؤثر لمواصلة الرحلة إلى الخليفة الأمين ، إذ تتأجج لديه محاولة التحرر من مشاعر القلق والتوتر ، وتوطيد العلاقة بينه وبين الخليفة الأمين من خلال ما خلعه عليه من أوصاف ومبالغات على حد يسلط فيه الضوء على ما حبى الله به هذا الخليفة من أوصاف مازته عن جميع المخلوقين متخذًا من المبالغة الصريحة والواضحة وسيلة لذلك في بقية أجزاء القصيدة .

---

(١) ينظر : شعر أبي نواس ( قراءة أسلوبية ) ، ص ١٢١ .

(٢) ينظر : الموشح ١ /٣٣٦ .

## ٣ ـ الارتياح والسرور

قال أبو نواس من الكامل [١]:

إن الـذي يَرْضَى الإلَهُ بِهَـدْيِهِ ∴ مَلِكٌ تَـرَدى المُلْكَ وهُوَ غُلامُ

وقال من الكامل [٢]:

داوَى به اللهُ القلوبَ من العَمَى ∴ حتى أفَقْـنَ وما بهن سَقـامُ

قد جاءت المبالغات السابقة في سياق قصيدة واحدة يمدح بها أبو نـواس الخليفة محمد الأمين ، وإذا نظرنا إلى مبالغات أبي نواس نجدها تكتظ بالـدلالات والإيحاءات إلا إن أبرزها هو الدلالة على التحول والتغيير بتـولي هـذا الخليفـة مقاليد الحكم ، وهذا هو أهم غايات أبي نواس من مدحه لهذا الخليفة ؛ لأن هـذا التغيير الذي أحدثه الخليفة يحمل وراءه أريحية وسرورًا من تغيير واقعه المريـر الذي كان يعيشه في أيام الرشيد .

والشاعر بتمجيده صفات هذا الممدوح جعله في صورة المخلوق المسـتمد خلافته وهديه من فيوضات الذات العلية ، ولقد تضمنت تلك المبالغات عددًا مـن الأساليب التي أسهمت ــ وبلا شك ــ في تعميق الدلالـة ، ورسـوخ المعنـى ، وإيضاح المقصود ، وهذه الأساليب في مجموعها تلحظ فيها أن الشاعر يروي بها عطشه ، ويشفي بها غلته ، ويقوي بها عزيمته .

فأسلوب التوكيد الذي أداته ( إن ) يدل على أن ما بعدها ثابت ، وما يليهـا من معان معمق في النفس وراسخ ، واستعمال الفعل المنسوب للذات العلية كناية عن تمكين الله ــ عز وجل ــ له وتأييده بنصره ، والتعبير بالمضارع يسعى مـن خلاله إلى بيان مدى شغفه ، وارتياحه بهذا الأمر ، وهنا تستأثر الأساليب الخبرية

---

(١) الديوان ، ص ٤٩١ .

(٢) المرجع السابق الصحيفة نفسها .

بما فيها من صفات وأفعال على التراكيب ليذهب بعيدًا بعقل القارئ وحواسه حتى يدرك مدى النشوة والسرور والارتياح جراء امتلاك الخليفة الأمين زمام الأمور .

وبقوله في الشاهد الثاني : ( داوى به الله القلوب ) كأنه ينقل الإحساس العام ، والحياة العامة ، ويضفي عليها صورة مجازية تتسع لبيان مدى وقعه على الشعور العام الذي أصبح يحتفي به احتفاء شديدًا بصياغة مثل هذه الصياغات المبالغ فيها ، فذكره ( العمى ، والسقم ) على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية فيه تجسيد لما كان يعاني منه الوطن من فوضى وجهل وظلم قبل مجيئه للحكم بصورتين حسيتين مؤثرتين في القارئ ، وهنا يبرز بقوله : ( داوى ) على طريق الاستعارة التبعية ؛ ليجسد ــ أيضًا ــ ما فعله هذا الخليفة في القوم بما توحي به هذه اللفظة من تحول الحال من حال إلى حال ، ومدى السرور والارتياح لما حل بحلوله ، وظهر بقدومه .

ويظهر في هذه المبالغة عناية خاصة بالفترة الزمنية التي تولى فيها الخلافة بقول : ( ملك تردى الملك وهو غلام ) ، وغلام من " غَلِمَ يَغْلَمُ غَلَماً وغِلْمةً أي غُلِبَ شهوة . . وغُلامٌ بين الغُلُومِ والغُلامِيَّةِ، وهو الطار الشارب " [(١)] ، وتظهر في دلالته مظاهر اللين وترك الشدة ، والارتياح والانجذاب نحوه . وبالنظر إلى دلالة لفظة ( غلام ) وما فيها من معنى الحداثة والصغر ، نجد فيها ملمحًا من الشاعر بأن الخليفة ليس أهلًا لهذا التولي .

فنفسية أبي نواس شديدة الحبور والفرحة والسرور بما يمتلكه هذا الملك من صفات سهلة التشكيل والتأثير فيها ، وكأنما هذه الصفات تمد أواصر العلاقة بينهما بالنماء والرواء .

---

(١) كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٤/ ٤٢٢) ، تح : د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ، الناشر: دار ومكتبة الهلال ( بدون تاريخ)

ومن ثم يأتي بالجناس بين ( ملك ، والملك ) لبيان مدى النشوة والارتياح بهذا التولي مما استدعى التغني بمثل هذه الألفاظ المتجانسات ؛ ولأجل هذا الارتياح والسرور بتولي هذا الملك زمام الأمور خلع عليه من الصفات ما يرفع من قدره ، وبالتالي من مبالغاته ، فجعله في منزلة تعدل منازل الأنبياء .

فمعاني أبي نواس يختفي وراءها إحساس قوي ؛ فهذا الملك قد جعله الله خليفته في الأرض ، وعنوان هديه ، ورضاه ، فيقيم العدل ، ويرفع الظلم ، ويستقيم به حال العباد ، فأي الرجال يبلغ هذا المبلغ ؟ وأي الملوك تحظى بمثل هذا الصنيع ؟ إلا إذا كان في درجة الأنبياء والمرسلين ، وهذا كله مما يدل على شدة سروره وارتياحه ، وهو لا يقف عند صورة واحدة بذاتها ، بل يتعداها في صور ممتدة متوالية أجزاؤها ، وهذا التوالي والامتداد في ذكر الصفات فيه تحليل لنفسية أبي نواس وما يعتريها من ارتياح .

وفي إسناد الأفعال إلى فاعلها وهو الذات العلية ؛ لأنه في نطاق وصف شيء أقرب إلى المعجزات التي يمكن أن تحدث ويتحقق فيها أمور وأمور لإسعاد الناس ، وإدخال السرور عليهم والارتياح ، وهي التي مضى الشاعر في ذكرها ، ونص عليها من خلال الثناء على هذا الرجل ، وما قدمه لرعيته .

وقد استثمر هذه الصفات وإيقاعها المتميز ، وربطها بالمعنى العام للقصيدة التي بدأها بالبكاء على الأطلال بقوله [١]:

يا دارُ ما فعلتْ بكِ الأيامُ ∴ ضَامتكِ والأيامُ ليس تُضامُ[٢]

عَرَمَ الزمانُ على الذينَ عهدتهمْ ∴ بكِ قاطِنينَ وللزمانِ عُرامُ[٣]

أيامَ لا أغشى لأهلِكِ مَنزِلًا ∴ إلا مُراقَبَةٌ على ظَلامُ

(١) الديوان ، ص ٤٩٠ .

(٢) الضَّيْمُ : الظُّلْمُ. وَضَامَهُ حَقَّه ضَيْماً: نَقَصه إِيَّاهُ (لسان العرب ، مادة ضيم (١٢/ ٣٥٩)

(٣) عرام الزمان : اشتد شراسة وأذى ( لسان العرب ، مادة عرم ١٢ / ٣٩٤ )

فهذه بداية يستهلها بوصف ما حل بديار الرشيد ، وما فعلته بها الأيام من هلاك ودمار ، ويربط تلك البداية بالحديث عن حاله عندما كان لا ينزل بأهل هذه الديار إلا مراقبة وحرصًا ، فكان الخوف والهم يغشيانه حتى مغادرة تلك الديار ، وكأنه بذلك يُعبر عن مدى سروره وارتياحه لما وصل إليه الحال بانتهاء عصر الرشيد ، وهنا يتوقف أبو نواس وقفة يعلن فيها هجر ماضيه الذي أوذي بسببه ليبرئ ساحته أمام الأمين ، ويعلن توبته بقوله [١] :

ولقد نَهزْتُ مع الغواةِ بدَلْوهم ∴ وأسَمْتُ سرْحَ اللهوِ حيثُ أساموا[٢]

وبلغتُ ما بَلَغَ امرؤٌ بشَبابِهِ ∴ فإذا عُصارةُ كل ذاكَ آثامُ

وبعد ذلك تحمله ناقته إلى الخليفة الأمين ليخلع عليه الصفات الدينية والمعنوية ، وهو بمدحه للخليفة الأمين يرفع عن نفسه حجاب الخليفة الرشيد ، وما كان يعتريه في أيامه من بؤس وإعدام ، فقال[٣] :

رُفِعَ الحجابُ لنا ، فَلاحَ لناظرٍ ∴ قَمَرٌ تَقَطعُ دونَهُ الأوهامُ

مَلِكٌ إذا عَلِقَتْ يداكَ بحَبْلِهِ ∴ لا يَعترِيكَ البُؤسُ والإعْدامُ [٤]

ولم يلبث إلا وأنهى صفاته بالدعاء له بقوله [٥] :

فسَلمتَ للأمرِ الذي تُرْجَى لهُ ∴ وتَقاعَسَتْ عَنْ يَوْمِكَ الأيَامُ

وفي هذا الدعاء إلحاح من جانب أبي نواس على الجوانب النفسية المسيطرة عليه ، فيجسد عوامله النفسية من خلال تعبيراته اللفظية بما يدل على مرارة الماضي ، والارتياح للحاضر ، والأمل في المستقبل .

---

(١) الديوان ، ص ٤٩٠.

(٢) نهزت بالدلو : ضربتها بالماء لتمتلىء . الغواة : الواحد غاو : الضال والمنقاد للهوى ، وأسمت : أرعيت . السرح : المال السارح ( المرجع السابق الصحيفة نفسها )

(٣) الديوان ، ص ٤٩٠ .

(٤) الحبل : كناية عن الصلة والعطاء (الديوان ٤٩٠)

(٥) الديوان ، ص ٤٩١ .

## الخاتمة

الحمد لله الذي به تتم الصالحات والصلاة والسلام على خيـــر خلـــق الله ، وعلى أهله وصحبه ، ومن والاه .

**وبعد**

بعد تلك الرحلة القصيرة مع نفسية أبي نواس في مدحـــه للخفـــاء يمكـــن الوقوف على بعض النتائج ، وهي : ــ

١ــ أثبتت مبالغات أبي نواس الممتنعة في مدحه للخليفة الرشيد أنها كانت تدور حول الرهبة الشديدة ، والرغبة في العطاء ، وهذا مما يتلاءم مـــع طبيعـــة العلاقة بين أبي نواس ، والخليفة الرشيد ، كما أثبتت تلك المبالغات نوعًا من التدرج في عرض المشاعر التي اعترته في علاقته بالخليفة الأمين ، فجاءت متوافقة مع المراحل التي مرت بها تلك العلاقة ومع مســـتويات ودرجـــات المشاعر ونوعها ، فجاءت أولًا محملة بالأمل المشحون بالقلق والتوتر ، ثم جاءت دالة على بعض الهدوء النســـبي ، وانتهـــت بالإحســـاس بالارتيـــاح والسرور وكأنه جاء بكل واحدة منها تلو الأخرى لتعبر عن تلك المشـــاعر المتدرجة .

٢ــ مبالغات أبي نواس الممتنعة لها حس يختلف باختلاف المعنـــى ، واخـــتلاف السياق والمقام ، وهي تعد سرًا من أسراره الخفية التي يقـــذفها ، فيجعلـــك تتحير ، وتفكر ، وتتأمل لتصل إلى أعماق نفسه .

٣ــ مبالغات أبي نواس الممتنعة لا يتوقف بها عند تلك المعـــاني التـــي خلفهـــا السابقون ، بل تراه يبالغ كلما مر عليه معنى له صلة وثيقة بنفسه ، يبـــالغ متخوفًا ، ويبالغ مؤملًا ، ويبالغ ليعبر عن سروره وارتياحه .

٤ــ هذه المبالغات التي تجاوز بها حد المعقول كان لها تداعياتها النفسية عند أبي نواس ، وجدواها التي تنجم عنها ، وهي تمثل علاقة السببية بين نفســـيته ،

وبين ما يتمثله ويصوره من صفات في شخص الممدوح ، يحاول من خلالها أن يقدم رؤية جديدة لشخص الممدوح تخالف المعهود فيه .

٥ــ اعتمد أبو نواس في مبالغاته على مجموعة من البراهين أحدها واقع ملموس، وثانيها : خيال جارف ؛ ولهذا أقام معظم تراكيب ألفاظه على الحقيقة يعضدها بعض الأساليب المجازية كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ؛ لتصوير الأمور المعنوية كأنها أمر حسي ملموس دون إلباس أو إبهام ، مما انعكس هذا على جميع جزيئات القصائد في المطلع ، والصلب ، والختام .

٦ــ تراكم المبالغة الممتنعة بمجموعة من الأساليب الحريصة على التأكيد ، فهو يؤكد ويبالغ في نفس الوقت ، وهو يحيلنا إلى أن المشاعر التي انتابته ليست مشاعر عابرة ، بل هي مشاعر متأصلة في نفسه ، ويعاني منها .

٧ــ هيمنة الألفاظ والتراكيب في مطلع القصيدة التي يستهلها أبو نواس للدلالة على الشعور الذي يعانيه ، وقد استهل معظم القصائد الواردة في مدح الرشيد وابنه الأمين بالوقوف على الأطلال مع أنه من المتمردين على ذلك ؛ خوفًا من سطوة الرشيد ؛ وتجنبًا لفقد صحبة الأمين .

٨ ــ امتداد نفس أبي نواس في عرضه لمبالغاته التي تتغير معها حقائق الأشياء امتدادًا لافتًا في معالجته للفكرة التي يريد أن يعبر عنها ، وقد كان هذا منفذًا لتفريغ الطاقة النفسية التي يريد أن يعبر عنها ، ومنفذًا لعرض آرائه ، ولكن عن طريق خفي دفين .

٩ ــ كشف البحث عن مقدرة أبي نواس البديعة على إكساب ممدوحه صفات خارجه عن حد المعقول من خلال قفزاته الشعرية التي يكسبها بعض الأخيلة المجاوزة للواقع ، والتي تكشف عن قدرته العجيبة على حشد كثير من فنون البيان والبديع حتى يصل إلى ما يريد ترسيخه في نفوس المتلقين .

# فهرس المصادر والمراجع

* الأعلام للزركلي، الناشر: دار العلم للملايين ، ط٢٠٠٢:١٥م .
* البيان والتبيين للجاحظ ، ت عبد السلام هارون ، الناشر: دار ومكتبة الهـــلال، بيروت ، عام النشر: ١٤٢٣ هـــ .
* تاريخ الأدب العربي، كارم بروكلمات، دار المعارف القاهرة، ط ٥ (بدون تاريخ)
* جمهرة اللغة ، للحسن بن دريد الأزدي ، تح : رمزي منير بعلبكي ، الناشـــر: دار العلم للملايين – بيروت ، ط١ : ١٩٨٧م .
* جواهر البلاغة ، تأليف : أحمد الهاشمي ، علق عليه ودققه / سليمان الصالح، الناشر : دار المعرفة بيروت ــ لبنان ط١ : ٢٠٠٥م .
* حديث الأربعاء ، د / طه حسين ، طبعة مؤسسة هنداوي للتعلـــيم والثقافـــة ( بدون تاريخ )
* الخطابة في كتاب الشفاء ، د / شوقي ضيف ، الناشر : مكتبة ابن رشيد الدار البيضاء ٢٠٠٦م .
* دلائل الإعجاز ، ت: د. عبد الحميد هنداوي ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى،١٤٢٢هـــ - ٢٠٠١ م .
* ديوان أبي نواس ، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ / علي فاعور ، طبعـــة دار الكتب العليمة بيروت ــ لبنان ، ط١: ١٤٠٧ هـــ / ١٩٧٨م .
* شرح الشفا ، المؤلف أبو الحسن نور الدين الهروي القـــاري ، الناشـــر : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط١ / ١٤١٢هـــ .
* شروح التلخيص ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة عيســـى البـــابي الحلبي وشركاه ( بدون تاريخ ) .
* شعر أبي نواس قراءة أسلوبية ، تأليف : عبد الناصر حسن محمد ، الناشر : المجلس الأعلى للثقافة ــ القاهرة ، ط١ : ٢٠٠٩م .

* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، د / شوقي ضيف ، الناشر : دار المعارف القاهرة ( بدون تاريخ ) .
* الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لابن حماد الجوهري الفارابي ، تح: أحمد عبد الغفور عطار ، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ : ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م .
* طبقات الشعراء لابن المعتز ، تح : عبد الستار أحمد فراج ، الناشر: دار المعارف – القاهرة ، ط٣ : ( بدون تاريخ ) .
* العقد الفريد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ : ١٤٠٤ هـ .
* علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع ، تأليف : أحمد مصطفى المراغي ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنات ، ط٣ : ١٩٩٣م .
* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، لابن رشيق القيرواني ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر: دار الجيل ، ط٥ : ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .
* الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم ، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر( بدون تاريخ ) .
* القاموس المحيط ، لابن يعقوب الفيروزآبادى ، تح : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ، ط٨ : ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .
* كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تح : د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي الناشر: دار ومكتبة الهلال ( بدون تاريخ ) .
* لسان العرب لابن منظور، الناشر: دار صادر – بيروت ، ط٣ : –١٤١٤هـ .
* مجمل اللغة لابن فارس ، تح: زهير عبد المحسن سلطان ، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٣ : ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م .
* المخصص لابن سيده ، تح: خليل إبراهم جفال ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط١ : ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

* معجم البلدان شهاب الدين الحموي ،الناشر : دار صادر بيروت ، ط٢ : ١٩٩٥ م
* معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، تح: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر ، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ) .
* ملامح الشعر الأندلسي، تأليف : عمر الدقاق ،الناشر : دار الشري العربي ٢٠٠٦م
* منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ت / محمد بن خوجه ، الناشر : دار الكتاب تونس ١٩٦٦م .
* الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني ، ت / محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية بيروت لبنات ( بدون تاريخ ) .
* نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية ، ط١ :، ١٣٠٢ هـ .
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان المؤلف: أبو العباس ابن خلكان البرمكي الإربلي، تح : إحسان عباس ، الناشر: دار صادر – بيروت ، ط١ : ١٩٠٠م .
* يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور الثعالبي ، تح / مفيد محمد قميحة ،الناشر : دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط١ :١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

# فهرس الموضوعات


| م | الموضوع | رقم الصفحة |
|---|---|---|
| ١ | المقدمة | ٢١٠٥ |
| ٢ | التمهيد | ٢١٠٩ |
| ٣ | ١ـ الإيغال في الوصف بين القبول والرفض . | ٢١٠٩ |
| ٤ | ٢ـ الدلالة النفسية ، وأثرها في البلاغة العربية . | ٢١١١ |
| ٥ | ٣ـ طبيعة الشاعر، وصداها في مدحه للخليفة الرشيد وابنه الأمين | ٢١١٢ |
| ٦ | المبحث الأول :<br>دلالة المبالغة علي الأحوال النفسية لأبي نواس في مدحه للخليفة الرشيد | ٢١١٥ |
| ٧ | ـ الرهبة الشديدة المشوبة ببعض الأمل . | ٢١١٥ |
| ٨ | ـ الأمل المطلق . | ٢١٢٧ |
| ٩ | المبحث الثاني :<br>دلالة المبالغة على الأحوال النفسية لأبي نواس في مدحه للخليفة محمد الأمين | ٢١٣٤ |
| ١٠ | ـ الأمل المشحون بالقلق والتوتر . | ٢١٣٤ |
| ١١ | ـ الهدوء النسبي | ٢١٣٩ |
| ١٢ | ـ الارتياح والسرور | ٢١٤٧ |
| ١٣ | الخاتمة | ٢١٥١ |
| ١٤ | فهرس المصادر والمراجع | ٢١٥٣ |
| ١٥ | فهرس الموضوعات | ٢١٥٦ |